أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

للمؤلف
عطية أحمد محمود القوصي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

لم يسرع الجهاد وتفرض حرب على المسلمين إلا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة. فقد كان المسلمون في مكة مأمورية بأن يكفوا أيديهم وأن يقابلوا أذى المشركين وعدوانهم بالعفو والصبر؛ فلما هاجروا إلى المدينة المنورة وانضموا إلى إخوانهم الأنصار قويت شوكتهم واشتد جناحهم فأذن الله لهم حينئذ في القتال انتقاما ممن ظلموهم من عتاة الكفر بمكة وطغاة الشرك بها. وقد جاء لهم الإذن بذلك في العام الثاني للهجرة ولكنه لم يفرض عليهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

تلك هي مراتب ومشروعية القتال في الحرب والجهاد الذي كان في أول الأمر ممنوعا ومحرما، ثم صار مأذونا فيه، ثم مأمورا به الجميع المسلمين، والمشهود أنه فرض كفاية. والدليل على هذا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغزو بنفسه تارة وتارة يرسل غيره ويكتفي ببعض المسلمين، وقد كانت سراياه وبعوثه متعاقبة والمسلمون بعضهم في الغزو وبعضهم في المدينة.

وقد ذهب الجمهور إلى أنه فرض كفاية. وقال "الماوردي" أنه كان فرض عين على المهاجرين دون غيرهم. وقال "السهيلي": كان عينا على الأنصار، وقال "سعيد بن المسيب": أنه فرض والصحيح مذهب الجمهور وذهب "ابن القيم الجوزية" إلى أنجنس الجهاد فرض عين، وأما الجهاد بالنفس ففرض كفاية.

فالقتال على المسلمين فرض إذا فعله البعض وكان كافيا سقطت الفرضية عن الباقين، وإذا لم يفعله أحد أثم الجميع، وهو معنى فرض الكفاية، أما فرض العين فهو أن يكون فرضا على كل مكلف ولا يسقط عنه إذا فعله بنفسه أو وك لعنه فيما يجوز فيه التوكيل. والقتال يكون فرض عين في أحد الأمور الآتية:

-أن يحضر الملكف صف القتال ويوجد في المعركة لقوله تعالى في سورة الأنفال {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا....}[1].

ولقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار}[2]. -إذا عين الإمام قوما للقتال، فإن القتال يتعين عليهم بذلك ويصير فرض عين على كل منهم وذلك لقوله تعالى: {لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا}[3] ويجب الجهاد على المسلم البالغ العاقل الذكر الحر السالم من الضرر الواجد للنفقة.

-الحرب حرب دفاع فرضت على المسلمين:

كتب المرحوم (عباس العقاد) في كتابه: "عبقرية محمد" عن سر نجاح الدعوة المحمدية، وعن دور الحرب فيها فقال: "ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب في هذه الدنيا وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين".

ويتساءل العقاد عن أي إرهاب وأي سيف في الدعوة المحمدية ؟

إن السابقين إلى الإسلام حين دخلوا في الدين الجديد دخلوه وهم عزل مضطهدون تعرضوا لسيوف المشركين ولم يعرضوا أحدا لسيوفهم، لأنهم أصلا لم تكن لديهم سيوف، وكانوا قد لقوا العنت ولم يصيبوا أحدا بعنت، وخرجوا من ديارهم ولاذوا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولم يخرجوا أحدا من داره. وهم حين أسلموا لم يدخلوا الإسلام على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه والمتربصين له، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين المسلطة على أعناقهم وإرهاب الأقوياء المتحكمين في زمام أمر مكة آنذاك.

ولما هاجر هؤلاء وتكاثروا ووجدوا النصرة والحماية من إخوانهم الذين لحقوا بهم في الإسلام المنورة حملوا السيف حين أذن الله لهم بذلك والرسول ليدفعوا عن دينهم وأنفسهم الأذى

---
(1) الأنفال: ٤٥.
(2) الأنفال: ١٥.
(3) رواه البخاري.

ويواجهوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوا السيف ليبدأوا أحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن غالبيتها إلا حروب دفاع وامتناع.

وعن قول المغرضين بأن نجاح الدعوة المحمدية وانتصار أصحابها إنما كان استجابة لإغراء لذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين، إذا كان الباعث كذلك فلقد كان أحرى الناس أن يتسجيب إلى هذه الدعوة فسقة المشركين وفجارهم هم أسبق الناس إلى ذلك لأنهم تذوقوا هذه المتع ويرغبون في استدامتها، وهي أشهى عندهم من الذين لم يذوقوها أصلا.

لقد نجحت الدعوة المحمدية لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته صلى الله عليه وسلم.

ولم ينجح الإسلام لأه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون وما انتشر بحد السيف كما يدعى الكاذبون، ولكنه دين سلم وسلام وقد اضطر للقتال الذي فرض عليه فرضا لدعم هذا السلام في العالم ولتثبيت ونشر الدعوة الحق التي نزلت من عند الملك القدوس السلام المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

ولدق دعت أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتجنب الهجوم والمباداة بقتال العدو لعجز أو خوف لأمر يجهله ولا يجيده، ولكنه اجتنبه لأنه انتظر أمر ربه في شرعيته، ولأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها حين تيسرت له الحيلة الناجحة وحين صدر له الأمر بالجهاد من الله العزيز القدير.

ولقد كان الإسلام في بداية عهده هو المعتدى ولم يكن هو المعتدى، وفي المجتمع الجديد الذي قامت فيه دولة الإسلام في المدينة المنورة، ظن بعض المسلمين أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت بين المهاجرين والأنصار والموادعة التي حصلت مع اليهود، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أنه سيخوض معركة قاسية مع المجتمع الذي ترأسه، وعلم أنه سيحارب بدولته، ثم مع العالم الخارجي القائم أنذاك، وعلم أنه سيحارب على عدة جبهات، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع الدول الكبرى القائمة يؤمئذ في خارج شبه الجزيرة العربية.

على الجهة الداخلية أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب اليهود الذين ساءهم أن يكون نبي آخر الزمان من العرب وليس من بني إسرائيل، كذلك أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب على الجبهة الداخلية المنافقين من العرب المتطلعين للقيادة والسيادة وهم ليسوا أهلا لها، وعلى رأسهم رأس النفاق "عبد الله بن أبي بن أبي سلول". وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها، الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم. أما الجبهة الخارجية فكان لزاما أن يصطدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوى الشرك في الدول الكبرى التي لن تتقبل بأي وضع من الأوضاع أن يتسيد العرب عليهم، وإن تتغير عقيدتهم المسيحية واليهودية والوثنية وتتحول إلى الإسلام، دين العرب.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئنا إلى أن أول صدام له سيكون مع قريش، عدو المسلمين الأول، والتي لن يهدأ لها بال إلا بالقضاء على الدين الجديد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم المخالف لدينهم والمحارب لأوثانهم وأصنامهم.

ولقد استطاع المسلمون بفضل الله ورعاية رسوله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم بصدق دعوى الإسلام، وحسن تطبيقهم لشرعه، وتصرفهم وانقيادهم لأوامر قائدهم العظيم أن يبوقا على تماسكوا وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا الترابط والاعتصام بحبل الله استطاعوا أن يقفوا في وجه هذه العداوات كلها وأن يخوضوا حروب كل تلك الجبهات، وأن يخرجوا من معاركهم، آخر الأمر، ظافرين مؤيدين بنصر الله العلي القدير.

وإن المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم ورسولهم في أول عهدهم في المدينة، هي تكاد أن تكون نفس المعارك التي يخوضونها اليوم في كل مكان، والأعداء هم نفس الأعداء، والأسلوب في الحرب هو نفس الأسلوب، والجبهة هي الجبهة نفسها، وإن اختلف الزمن وتبدلت الأسماء وتغيرت الصور وتحولت المفاهيم وتباينت المخططات والدسائس والمؤامرات. وكل هدف أصحابها بالأمس واليوم، هو القضاء على الإسلام وتشويه سيرة صاحب السيرة النبوية المشرفة عليه الصلاة والسلام. وإذا كان المسلمون قد نجحوا بالأمس بفضل ترابطهم وتماسكهم واتباعهم لأوامر الله ورسوله وتجنب ما نهوا عنه وكتب لهم النصر، فإن المسلمين اليوم مطالبون بأن يحذوا حذو أسلافهم الطيبين الطاهرين واتباع ما ورد في كتاب ربهم جل شأنه وسنة النبي الأمين الذي أرسله الله رحمة للعالمين حتى يدركهم نصر الله

وتدركهم رحمته، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر إذا هم نصروه بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}**(1).

في السنة الثانية للهجرة، فرض القتال والجهاد على المسلمين، وقد كان محرما عليهم قبل الهجرة، لظروف ضعفهم آنذاك وهم في مكة وغلبتهم على أمرهم لقلة عددهم ولكثرة عدد وعدد عدوهم، وبعد الهجرة، أجيز القتال لهم لما قامت في المدينة المنورة دولتهم وصلب عودهم وأذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم ورفع الظلم عنهم الذي وقع عليهم من قبل مشركي قريش وطغاة الكفر.

وتبين أولى الآيات القرآنية التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الثاني للهجرة وأذن لهم فيها بالحرب والقتال طبيعة الحرب في الإسلام ووظيفتها وأسباب خوضها بأنها في غالبها حرب دفاع لا حرب عدوان وقهر وتسلط، حرب دفاع عن الدين والحق والعرض. تقول الآيات الكريمة: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}**(2).

وتوضح آية كريمة أخرى(3) منع العدوان في القتال في قوله تعالى: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}**. وتضوح آية أخرى أمر الله للمسلمين بدفع عدوان الكافرين في قوله تعالى: **{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}**(4). وقوله تعالى: **{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ..}**(5).

وتطلب الآيات من المقاتلين المسلمين بألا يتمادوا في الحرب إذا انتهى العدو عنها في قوله تعالى: **{فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}**(6).

---

(1) محمد: ٧
(2) الحج: ٣٩، ٤٠
(3) البقرة: ١٩٠
(4) البقرة: ١٩١
(5) البقرة: ١٩٤
(6) البقرة: ١٩٢، ١٩٣

وقد دعت الآيات الكريمات المسلمين بأن يقاتلوا المشركين كافة في حالة اجتماعهم لقتالهم كافة، وذلك في قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}(١).

وقد شرع الإسلام الجهاد في سبيل الله وقد جاء بصدد ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الجهاد: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم بحقها وحسابهم على الله".

وتؤكد معظم المعارك التي خضاها الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أتباعه من المسلمين أنها حرب دفاع في غزوات بدر الكبرى وأحد والخندق، ولبيان ذلك ونؤكده نعرض للظروف والأحداث التي اضطرت الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه لخوض معارك هذه الغزوات دفاعا عن الدين والدعوة والدولة. ففي غزوة بدر لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاطع طريق ولا معتد، كما وصفه بذلك أعداؤه المغرضون، بل كان صاحب حق أراد استرداده، حق المهاجرين المسلوب الذين اضطرتهم قريش للهجرة إلى المدينة وترك ديارهم وأموالهم وكل ما يملكون في مكة هربا بدينهم الذي اعتنقوه طواعية واختيارا.

وقد وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بين ثمانية وثلاثين غزوة وسرية، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يشارك في كل السرايا بل كان ينيب عنه من يتولى قيادتها، وكانت السرايا أشبه بالحملات العسكرية الاستطلاعية، أما الغزوات فقد قادها صلى الله عليه وسلم جميعها بنفسه. وقد بلغ عدد السرايا التي أرسلها صلى الله عليه وسلم، قبل غزوة بدر، ثمان سرايا اتجهت إلى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية.

وقد كانت غزوة بد هي التجربة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إدارة المعارك الكبيقر، وقد أخذ في هذه المعركة بمشورة "الحباب بن المنذر"، كما سوف نرى، حين اقترح عليه الانتقال من المكان الذي نزل فيه إلى مكان أصلح لإدارة المعركة، ثم استوعب صلى الله عليه وسلم تلك التجربة الوحيدة ما قل أن يستوعبه القادة المحترفون والمنقطعون للحرب من تجارب عديدة. ولو تتبع خط واحدا في جميع معاركه التي خاضها حتى الوفاة.

(١) التوبة: ٣٦.

وما أن مضى على الهجرة ما يقرب من نصف العام حتى وطد القائد الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاله الجبهة الداخلية ونظم أمورها، وأخذ يستعد بعد ذلك للجبهة الخارجية والحرب المنتظرة مع المتربصين للإسلام وللمسلمين. فأخذ يسير السرايا وينطلق بالغزوات، وإن كانت سراياه وغزواته الأولى أعمالا حربية استطلاعية في المقام الأول، غايتها التعرف على الطرق حول المدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، وطريق التجارة الذي تسلكه قريش إلى الشام وتعود منه في رحلة الإيلاف الصيفية. ثم التعرف على القبائل القاطنة على طول تلك الطرق وإمكانية كسبها للإسلام إذا أراد الله لها النجاة، أو لضمان حيادها على الأقل إذا ما دخل في الحرب مع قريش في مواطن تلك القبائل ومضاربها ومنازلها. كذلك كان هدف هذه السرايا التعرض لقوافل قريش والإضرار بتجارتها وتهديد تلك التجارة التي هي دعامة اقتصاد قريش؛ الأمر الذي يثبت الكيان الإسلامي الجديد ويخيف قريش منه فتجبر قريش حينئذ على الاعتراف بهذا الكيان وعدم التصدي له بالعدوان. ثم إشاعة تلك الأخبار بين سائر قبائل العرب في شتى أنحاء شبه الجزيرة حتى يعرفوا قوة المسلمين وضعف قريش؛ الأمر الذي يجعل هذه القبائل، الساعة وراء مصالحها، أن تتحالف مع الدولة الجديدة وتعتنق دينها ورسالتها التي هي آخر رسالات السماء إلى الأرض.

وبلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزوات وثلاث سرايا، بدئ بها في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة واختتمت في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة.

وكانت أول السرايا التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثين رجل كلهم من المهاجرين، وقد جعل لواءها لعمه "حمزة بن عبد المطلب" في شهر رمضان ليعترض طريق قافلة تجارية لقريش عائدة من الشام بإمرة أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي) مع ثلاثمائة رجل، وكان حامل لواء الرسول "أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوى)، حليف حمزة، فوصل حمزة رضي الله عنه إلى ساحل البحر الأحمر من ناحية (العيص). وهنالك اصطف الفريقان للقتال، فمشى "مجدي بن عمرو الجهني"، وكان حليفا للفريقين، بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهما ولم يقتتلوا، ورضخ الطرفان للتسوية وانصرف كل فريق منهما إلى مقره. وقد شكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمجدي الجهني صنيعه هذا لقلة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة للقوة القرشية. وقد أدركت قريش، بعد وقائع هذه السرية، أنه صارت لمحمد

صلى الله عليه وسلم قوزة ورجال يقاتلون ويزودون دونه، وأن هذه القوة أصبحت خطرا واقعا يهدد طريق تجارتها إلى الشام التي هي عماد اقتصادها.

وبعد هذه السرية، وفي شهر شوال من العام نفسه، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بسرية أخرى بقيادة ابن عم أبيه "عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب" في ستين رجل من المهاجرين إلى (بطن رابغ)، وحمل لواءه "مسطح بن أثاثه بن عبد المطلب" وقد لقي ابن الحارث هنالك جمعا عظيما من قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب عدده مائتي رجل على عشرة أميال من (الجحفة)، ووقع بين الطرفين الرمي، ولم يسلوا السيوف ولم يطفوا للقتال وإنما كانت مناوشة. وكان سعد بن أبي وقاص فيهم وهو أول من رمى من المسلمين يؤمئذ بسهم، فكان بذلك أول من رمى بسهم في سبيل الله، ولم يقع قتال بين الفريقين وانصرفوا، وقد فر رجلان من المشركين من بين رجال قريش، وهما "المقداد بن عمرو" و"عتبة بن غزوان"، والتحقا بقوة المسلمين.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد تلك السرية، بسعد بن أبي وقاص إلى منطقة (الخرار) من أرض الحجاز في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر، وحمل لواءها (المقداد بن عمرو)، وكانوا عشرين راكبا يعترضون عيرا لقريش، وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سعد ألا يجاوز الخرار. ولما وصل سعد برجاله وجد أن العير قد جاوزت الخرار قبل وصولهم إليها بيوم واحد، فعادوا دون أن يظفروا بها.

وفي مطلع السنة الثانية للهجرة، وقعت أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وتعرف بغزوة (ودان) أو غزوة (الأبواء) وتقع شمال شرقي رابغ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عيرا لقريش وبني ضمرة عند الأبواء. وقد حمل لواء الرسول عمه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف الرسول (سعد بن عبادة) على المدينة. ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقواته إلى بني ضمرة عرضوا عليها الموادعة وعدم القتال على أن يعقد معهم معاهدة يتعهد فيها الطرفان بألا يغزو أحدهم أحدا وألا يعين أحد منهم أحدا، فعقد معهم الرسول تلك المعاهدة ووقعها عن بني ضمرة زعيهم "مخشي بن عمرو الضمري"، سيد قبيلة بني ضمرة، وعاد المسلمون دون قتال، وقد كانت تلك المعاهدة أول اعتراف من قبيلة عربية بدولة الرسول الجديدة. ولم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عودته إلى المدينة أن يزور قب أمه السيدة آمنة بنت وهب المدفونة بالأبواء.

وفي نفس العام في شهر ربيع الأول خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مـــائتين مـــن أصحابه من المدينة بعد أن استعمل عليها "السائب بن عثمان بن مظعون"، وحمل لواءه ســـعد بن أبي وقاص، يعترض عيرا لقريش فيها "أمية بن خلف الجمحي"، ومائة رجل من قـــريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ منطقة (بواط) من ناحية جبل رضوى، وهو جبل من جبال جهينة مما يلي طريق الشام. وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم هنـــاك شـــهري ربيـــع الأول والثاني دون أن يلقى كيدا، فعاد إلى المدينة دون قتال.

وفي الشهر التالي لعودته إلى المدينة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائة وخمسين من المهاجرين ليعترضوا قافلة تجارية لقريش متوجهة إلى الشام، وقد جاء رسول الله الخبـــر بخروجها من مكة وبها كل أموال قريش بقيادة "أبي سفيان بن حرب". واستعمل رســـول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمته "أبا سلمة بن عبد الأسد" على المدينة، وحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب، وسار حتى وصل (ذا العشيرة) ببطن ينبع على البحر الأحمر، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهي العير التي خرج لها المسلمون يوم بدر لما جاءت عائدة من الشام. ولم يكـــن مع أبي سفيان إلا عدد قليل من الرجال لحراسة القافلة رغم خطورة ما تحمله.

وبعد أن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة العشيرة بعشر ليال، أغار "كـــرز بـــن جابر الفهري" على مرعى للمسلمين بالمدينة وساق ما به أمامه؛ فخرج رسول الله صـــلى الله عليه وسلم في طلبه، واستعمل على المدينة مولاه "زيد بن حارثة"، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم واد يقال له (سفوان) من ناحيـــة بدر، ووجد كرزا قد فلت منه عائدا إلى مكة، فرجع رسول الله صلى الله عليه وســـلم دون أن يحارب. وقد عرفت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى، تمييزا لها عن غزوة بدر الكبرى.

وبعد عودته من بدر الأول في شهر رجب من العام الثاني للهجرة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم "عبد الله بن جحش الأسدي" في إثنى عشر رجلا من المهاجرين، كل اثنين مـــنهم على بعير، وليس فيهم أحد من الأنصار.

وكان الرسول قد كتب لابن جحش كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين في الطريق إلى مكة، ثم ينظر فيه فيمضي إلى ما أمره به في الكتاب.

فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه ما نصه: "إذا نظرت في كتـــابي هـــذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم". فقـــال:

"سمعا وطاعة"، وأخبر أصحابه بذلك وبفحوى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضوا جميعهم لتنفيذ الأمر. فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتبادلان الركوب عليه، فتخلفا في طلبه وبعد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل وبقلا وتجارة من تجارات قريش، وكان في العير "عمرو بن الحضرمي" و" عثمان ونوفل إبنا عبد الله بن المغيرة"، و"الحكم بن كيسان"، مولى المغيرة، فتشاور المسلمون في أمرهم وقالوا: "نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ولاذوا به"، ثم أجمعوا على قتالهم. فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل بن عبد الله بن المغيرة، ثم قدموا المدينة بالعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام. وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه، وقال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"، فأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذهما. فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أسقط في يد القوم وظنوا أنهم هلكوا، وقام إخوانهم من المسلمين بتعنيفهم على ما صنعوا.

وقالت قريش: "لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم فيه وأخذوا الأموال وأسروا الرجال". فلما أكثر الناس في ذلك نزل حكم الله في هذا الأمر بقوله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا....}**[1]. فلما فصل القرآن في الأمر قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، ثم أطلق سراح الأسيرين بعد أن دفعت عوائلهم ديتهما ألف وستمائة درهم. وأسلم الحسن بن كيسان وحسن إسلامه، أما عثمان بن عبد الله بن المغيرة فلحق بمكة ومات بها كافرا.

وينبغي ألا تمر بنا أحداث سرية عبد الله بن جحش دون أن نشير إلى ما وقع بصددها من جانب السنة النبوية والتشريع الإسلامي في شئون الحرب والقتال. فهي، كما رأينا، سرية استطلاع، لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها بحرب. وما وقع بعد قدوم السرية إلى المدينة هو حكم القانون الدولي المتفق عليه في كل العصور: أسيران تبودلان بأسيرين، وأموال العير تعويض

[1] البقرة: ٢١٧

للأموال التي حجزتها قريش من أموال المسلمين المهاجرين، والمعاملات الدولية في كل زمان لم تكن لتحكم بمثل هذا الحكم الذي نزل به القرآن وارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم وقـام بتنفيذه.

وكانت حادثة ابن الحضرمي ونزول حكم الله فيها مفتاحا من مفاتيح الخير وسببا من أسـباب النصر والتأييد للمسلمين في معركة بدر الكبرى. لقد فعلت قريش بالمسلمين الأفاعيل، ولكنها تناست كل ما فعلت ولم تذكر إلا حادثة ابن الحضرمي واستلاب العير، فجعلت تزيـد فيهـا وتعيد واتخذتها حجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاول أن تثير العرب بهـا علـى الإسلام وأهله.

فقد أرادت قريش أن تستغل وقوع هذه الحادثة في الشهر الحرام لإثارة العرب جميعـا ضـد الإسلام وإشعال الحرب على المسلمين وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الله تعالى بما نزل على نبيه من آيات بينات أبطل حجة قريش وأفحمها وبين للناس أن ما فعلته قـريش بالمسلمين كان أشنع وأفظع من هتك حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه، وأن الذي فعله المسلمون من القتل في الشهر الحرام أهون بكثير مما فعلته قريش من اضطهاد وتعذيب وإيذاء، وصـد عن سبيل الله. وإخراج المسلمين من ديارهم بغير حق، وحلوا بينهم وبين المسجد الحرام وهم أهله وأولياؤه. وسعوا من الكيد للمسلمين حتى يقضوا عليهم أو يردوهم من بعد إيمانهم كفارا. فأي جرم أكبر من فتنة المرء عن دينه وهو قوام روحه وحياة نفسه ؟ لذلك ضاعت عليهم هذه الفرصة التي ظنوها تخدمهم في حربهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانكـشف عـن المسلمين ما أصابهم من غم نتيجة ما فعله أقرانهم من قريش. وفرح عبد الله وأصحابه بـدفاع رب العباد عنهم وتأييده لما فعلوه وقبوله.

وكان انتصار الله تعالى لفعلة عبد الله وأصحابه وإطاعمه إياهم في عفوه وغفرانه ورحمتـه عاملا مشجعا للمسلمين على التمادي في مناوءة قريش ومن سار على دربها من قبائل العرب في عداوة الإسلام ومخاصمة المسلمين، فأخذت البعوث الخارجة بعد ذلك في سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشارك فيها الأنصار والمهاجرون بعد أن كانت مقصورة على المهاجرين وحدهم. وأيقن المسلمون بأنهم على عتبة مرحلة جديدة من الكفاح عليهم أن يحشدوا لها كـل قواهم، وأنه لم يعد عليهم من جناح أن يقاتلوا أعداء الله في الأشهر الحرم، وذلك تطبيقا لقوله

تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

وحينذاك أدركت قريش أنه لم يعد لها أن تعربد ضد المسلمين في مكة أو خارجها كما كانت تفعل من قبل، وأحست بأن المسلمين لم يعودوا أولئك النفر المستضعفين الذين كانوا في مكة قبل الهجرة، وأن هذا الطفل الرضيع قد كبر وصارت له أضراس وأنياب يقضم بها وأظافر ومخالب ينهش بها من يتعرض له بالأذى أو يقف في سبيل دعوته وحريته. فأخذت قريش تعيد النظر في أمرها وتفكر جديا في كيفية حماية طريق تجارتها من غارات أولئك القوم الذين صاروا ضوكة في حلقها يهددون تجارتها مع الشام، خاصة حين أدركت أن المسلمين لن يتخلوا عن أمر مهاجمة قوافلهم الذاهبة إلى الشام والعائدة منها تعويضا لهم عما تركوه في مكة من مال ومتاع استولت عليه قريش بغيا وعدونا. فالجزاء من جنس العمل، ولا عيب ولا حرج على المسلمين لو فعلوا ذلك، وليس في ذلك عدوان من جانبهم أو اعتداء إذا استردوا من عدوهم ما اغتصب بالقهر منهم بعد أن رفعوا رؤوسهم وصارت في يدهم القدرة على ذلك.

وكانت قافلة غزوة العشيرة، التي خرج من أجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر قوافل قريش وأجمعها لأموالهم، وقد قوم ما كانت تحمله من بضائع بخمسين ألف دينار من دنانير ذلك العهد، وقد فاتت هذه القافلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجها إلى الشام، وأخذ ينتظر قفولها منه، وندب لها أصحاب وقال لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها، لعل الله يغنمكموها". فاستنهض لها من خف من أصحابه وأمر من كانت وسيلة ركوبه حاضرة أن ينهض ولم ينتظر الغير متجهز؛ فأسرع البعض وأبطأ البعض.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السبت لاثنى عشر من شهر رمضان المعظم من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٤م) ومعه ثلثمائة وسبع عشرة من المهاجرين والأنصار، وكان قد بعث بطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العدو، ولكنه تعجل الخروج قبل عودتهما إليه بالخبر، حرصا منه على إدراك القافلة وحذرا مما عسى أن يصادف رسوليه من عقبات الطريق فيؤخره عن غايته. وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أبار عذبة الماء على نحو ميل من المدينة تعرف (ببيوت السيقا)، فنزل بها يوم الأحد وعسكر هناك، واستعرض رجاله فرد منهم صغارهم الذين رأى فيهم أنهم لا يقوون على الحرب، وكان من بينهم عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن حضير وزيد بن

الأرقم، وزيد بن ثابت، وعمير بن أبي وقاص، أخا سعد بن أبي وقاص. فالتزم جميعهم بالأمر إلا عمير الذي كان يبلغ من العمر ست عشرة عاما فبكى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجاه في المشاركة فتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لبكائه وأجازه، ونال الشهادة يوم بدر.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا متجها ناحية بدر، وصار معه من الرجال المقاتلين، بعد استبعاد الصغار منهم من هم دون السادسة عشرة من العمر، ثلثمائة وخمسة، فيهم نحو سبعين من المهاجرين والباقين من الأنصار، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين اثنين ومن البعير سبعين بعيرا يتبادلون الركوب عليها، كل اثنين أو ثلاثة يتناوبون ركوب بعيرا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كواحد منهم، يتناوب الركوب على بعير واحد مع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يكون كواحد من أصحابه وأن يشاركهم في تعبهم رواحتهم؛ فكان إذا ما انتهت نوبته في الركوب نزل فيقول له رفيقاه: "اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك" فيقول لهما: "ما أنتما أقوى مني على المشي وما أنا بأغنى منكما عن الأجر".

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيم رجاله في تشكيل حربي قويم، وجعل على الساقة (قيس بن أبي صعصعة)، أخا بني مازن بن النجار وعلى المقدمة (الزبير بن العوام)، وعقد ألوية ثلاثة: لواء أبيض يحمله (مصعب بن عمير) ورايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع رجل من الأنصار. وبعث صلى الله عليه وسلم (بسبس بن الجهني)، حليف بني ساعدة، و(عدي بن أبي الزغباء الجهني)، حليف بني النجار إلى بدر يتحسان له الأخبار عن أبي سفيان والعير التي معه. ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم منطقة يقال لها (الصفراء)، وهي قرية بين جبلين، ثم سلك منها ذات اليمين على واد يقال له (ذفران)، ونزل هناك، وهناك جاءه الخبر بخروج جيش قريش من مكة ليمنعوا عيرهم وإعلانهم الحرب على المسلمين وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعند ذلك لم يكن أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يواجه هذا العدوان المكي وألا يجبن عن النزال بعد أن فرضت قريش الحرب عليه وعلى رجاله وخرجوا في عددتهم وعتادهم ليلقنوا محمدا والمسلمين درسا لن ينسوه أبدا وليمحق جيشهم قوة المسلمين قبل أن

تنمو وتكبر ويستفحل أمرها كما توهموا. فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا في رجاله يستشيرهم في الأمر، لأنه يعلم أنهم ما خرجوا لحرب ولكنهم خرجوا لاسترداد أموال لهم اغتصبتها قريش وتاجرت بها وربحت تجارتها وأن لهم أن يستردوها. كذلك أنهم ما خرجوا في عدة الحرب وليس عددهم بكاف لمواجهة العدد الأكبر الذي سوف تواجههم قريش به. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجبر أحدا على الحرب والقتال إن لم يكن مقتنعا به ومنتظرا له.

ولما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس في الأمر، قام أبو بكر الصديق خطيبا فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال: "يا رسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشيروا على أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار، ذلك لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: "يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا"، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له (سعد بن معاذ): "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟" قال: "أجل"، قال سعد: "فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر[2] فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله". فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ثم قال: "سيروا وابشروا فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم".

---

(1) موضع بعيد مهلك بناحية اليمن.
(2) يريد البحر الأحمر.

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل قريبا من بدر، فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقفا على شيخ من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: "لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أخبرتنا أخبرناك"، قال: "أذاك بذاك؟" قال: "نعم"، قال الشيخ: "فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإذا كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا"، للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجاله، "وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا" للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: "ممن أنتما؟"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن من ماء"، ثم انصرفا عنه.

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فلما أمسى بعث عليا بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا هناك إبلا يسعى الماء عليها لقريش فيها (أسلم)، غلام بني الحجاج، و(عريض أبو يسار)، غلام بني العاص ابن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي؛ فقالا: "نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم الماء"، فضربوهما، فلما أوجعهما الضرب قالا: "نحن لأبي سفيان"، فتركوهما. وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتيه ثم سلم، وقال لهم: "إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموها، صدقا والله إنهما لقريش". وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبراني عن قريش؟"؛ قالا: "هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى"، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم القوم؟"، قالا: كثير"، قال: "ما عدتهم؟" قالا: "لا ندري"، قال: كم ينحرون كل يوم؟" قالا: "يوما تسعا ويوما عشرا"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القوم فيما بين التسع مئة والألف"، ثم قال لهما: "فمن فيهم من أشراف قريش؟" قالا: "عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة ابن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه إبنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو ابن عبد ود". فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ (قطع) كبدها".

وكان بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء، قد مضيا حتى نزلا بدرا فأناخا إلى تل قريب من الماء، فوجدا هناك جارتين تسقيان من الماء، وعلما من من حوار دار بينهما أنهما تترقبان عير قريش، وأن هذه العير توشك أن تصل إلى بدر بعد يوم أو يومين، فرجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالخبر. أما أبو سفيان فأقبل بالعير حذرا حتى ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: "هل أحسست أحدا؟"، فقال: "ما رأيت أحدا أنكره إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن (زق) بال لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان حيث برك بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، ففته، فإذا فيه النوى؛ فقال: "هذه والله علائف يثرب". فرجع إلى أصحابه سريعا فضرب وجه عيره عن الطريق وسار بهما بطريق ساحل البحر، فترك بدرا على يساره وانطلق مسرعا إلى مكة. وأرسل أبو سفيان، على عجل، رسولا إلى قريش، ينبئها بما عزم عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ويستنفرها لحماية قافلتها، ووصى رسوله أن يبالغ في إظهار الخوف حتى يستنهض همم الناس للغوث والنجدة. فاتخذ الرسول لذلك ما أوصاه أبو سفيان به، فجدع بعيره وحول رحله وشق قميصه، ووقف يصرخ ببطن الوادي: "يا معشر قريش، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ! الغوث الغوث".

ولما رأى أبو سفيان بعد ذلك أنه قد نجا بالعير، أرسل إلى قريش يقول: "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا". فقال أبو جهل: "والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا، فنحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا". وغلب رأي أبي جهل رأي أبي سفيان وغيره ممن رأوا ألا حاجة للحرب بعد أن نجت العير، وبذلك سارت قريش في طريق الحرب متوقعة أن يكون لهم النصر فيها وأن تكون هي القاصمة على محمد ورجاله، على أرض بدر.

وبدر موسم من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام، وماء مشهور بين مكة والمدينة، ومحطة للقوافل الذاهبة إلى الشام، بينه وبين المدينة نحو مائة وستون كيلو متر، وهو سهل رملي يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ومن الغرب كثبان رملية ومن الجنوب منحدر صخري منخفض ينساب في واديه جدول ماء يعبره من الشرق والغرب، ويتطقع هذا الجدول إلى آبار كثيرة ويحيطها المسافرون بأحواض.

قال ابن اسحق: "ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي مما يلي مكة خلف الكثيب والوادي، ونزل المسلمون منزلا بعيدا عن الماء بالعدوة الدنيا مما يلي المدينة، بينهم وبين الماء رملة لينة سهلة تسيخ فيها الأقدام، فظمئ المسلمون حتى جهدوا لكن الله تعالى ساق إليهم السحاب فأمطر في وقت ليس بوقت مطر فشرب المسلمون وتطهروا وسقوا الركائب وملأوا الأسقية، وتلبد الرمل تحت أقدامهم فسهل عليهم السير عليه وأصابتهم غشية من النعاس ولما أفاقوا من نومهم نهضوا وهم في غاية النشاط والتثبيت". وفي ذلك نزل قوله تعالى: {**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**}[١].

ولما نام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بات هو قائما يصلي ويدعو ربه أن ينجزله ما وعده، وظل على هذا الحال حتى طلوع الفجر، فدعا أصحابه إلى الصلاة وصلى بهم وحرضهم على القتال، ثم خرج يبادر قريشا إلى الماء يريد أن يسبقهم إليه، حتى إذا وصل أول ماء من مياه بدر نزل عنده.

وكان (الحباب بن المنذر) عالما بمياه بدر، فقال: "يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة" فقال الحباب: "يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فإني أعرف غزارة مائه وكثرته فتنزله، فنغور ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أشرت بالرأي". ونهض بأصحابه حتى نزلوا حيث أشار عليه الحباب؛ فصاروا بأقرب منزل من القوم ولم يكن بينهما إلا كثيب رملي، ثم بنوا الحوض على البئر، وطموا ما وراءهم من الآبار.

وأشار سعيد بن معاذ على رسول الله أن يبني له عريش يشرف منه على المعركة ويوجه مسارها، ويأمن فيها من غارة العدو، فبني العريش على تل مشرف وأعدت عنده أنجب الركائب ليكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن أسحق يصف وقائع المعركة: "وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب نحو الكثيب الرملي الذي جاءوا منه إلى الوادي قال:

---

(١) الأنفال ١١

"اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم (أهلكهم) الغداة".

ولما اطمأن المشركون حيث أقاموا، بعثوا عميرا بن وهب الجمحي، فقالوا لـه: "احـذر لنـا أصحاب محمد"، فاستجال بفرسه حول عسكر المسلمين، ثم رجع إليهم فقال: "ثلاث مئة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن إمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أم مدد؟" فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: "ما وجدت شيئا، ولكني قد رأيت يا معـشر قـريش البلايا تحمل المنايا، نواضح (الإبل التي يستقي الماء عليها) يثرب تحمل الموت الناقع، قـوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم".

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشي في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: "يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الـدهر؟" قال: "وما ذاك يا حكيم ؟"، قال: "ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمي"، قـال: "قد فعلت أنت علي بذلك، إنما عليك بحليفي ابن الحنظلية"، يقصد أبا جهل، وكانت أمه تعرف بالحنظلية، فإني أخشى أن يأخذ الناس برأيه". ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا في الناس فقال: "يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلـك ويكن محمد ملكا أكلتم في ملك أخيكم وإن يكن نبيا كنتم أسعد الناس بـه يـا قـوم لا تـردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي".

قال حكيم: "فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد أخرج درعا له من جرابها وأخذ يطليهـا بالزيت، فقلت له: "يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال"، فقال: "انـتفخ والله سحره حين رأي محمدا وأصحابه، كلا، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، ومـا بعتبة ما قال، ولكنه قد رأي أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه". ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي الذي قتل أخوه في نخلة، فقال: "هذا يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خطرتك ومقتل أخيك"، فقام عامر بن الحضرمي فاكتـشف ثـم صرخ: "واعمره... واعمراه"، فحميت الحرب، واشتد الناس واستوثقوا على ما هم عليه مـن

الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. فلما بلغ عتبة ما قاله أبو جهل عنه أنه "انتفخ والله سحره"، قال: "سيعلم مصفر إسته من الذي انتفخ سحره، أنا أم هو؟"، ثـم الـتمس عتبة خوذة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش واحدة تسعه لعظم هامته، فلما رأي ذلك تعمم على رأسه ببرد له.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية يوم بدر:

عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أحسن تعبئة، بعد أن أوصاهم بالثبات والصبر في الحرب التي فرضت عليهم، وأوصاهم قائلا لهم: "لا تحملوا حتى آمركم، وإن هاجمكم القـوم فانضحوهم عنكم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم". ثم رجع إلى العريش فدخله وصاحبه أبو بكر الصديق في الدخول، ووقف سعد بن معاذ على باب العريش شاهرا سيفه ومعه كوكبة من رجال الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أي هجوم مباغث من قبـل العدو، وهيئت النواجب لركوبه إن احتاج إليها.

وبدأت قريش الحرب بخروج (الأسود بن عبد الأسد المخزومي) مـن صـفوفها، وكـانرجلا شرسا سيئ الخلق، قاصدا حوض الماء الذي أقامه المسلمون وهو يقول: "أعاهد الله لأشـربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه". فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمـا التقيا ضربه حمزة بسيفه فأطار بها قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهـره إلى الأرض تشخب رجله دما، ثم استمر يزحف حتى وصل إلى الحوض يريد أن يبر بيمينه، فأتبعه حمزة بضربة أخرى حتى قتله في الحوض.

ثم خرج بعد ذلك عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة يدعون إلـى المبازرة، ونادوا: "يا محمد، اخرج إلينا أكفاءنا"، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنـصار، وهـم (عوف ومعوذ ابنا الحارث)، و(عبد الله ابن رواحة)؛ فقالوا: "من أنتم؟" فقـالوا: "رهـط مـن الأنصار"، قالوا: "ما لنا بكم من حاجة"، ثم نادى مناديهم "يا محمد، إخرج إلينا أكفاءنـا مـن قومنا"، فقال رسول اله صلى الله عليه وسلم: "قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يـا علي" فلما قاموا ودلوا منهم، قالوا: "من أنتم؟" فمى كل واحد منهم اسمه، فقالوا: "نعـم، أكفـاء كرام"، فبارز عبيدة، وكان أكبر الثلاثة سنا عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بـن ربيعـة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة فقتله على الفور، كذلك لم يهمل علـى الوليد وقتله على الفور، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما جرحت صاحبه جراحه

بالغة، فكر حمزة وعلى على عتبة وأسرعا في قتله، واحتملا صاحبهما عبيدة فحازاه إلى أصحابه وقد قطعت ساقه.

وهنا أهاج منظر القتلى ودماؤهم المراقة على أرض المعركة المشركين، وجن جنونهم لقتل ثلاثة من أشرافهم وكبرائهم وقادتهم، فهجموا على صفوف المسلمين يرمونهم بالنبال وهم ثابتون في أماكنهم امتثالا لأوامر القائد العظيم، فما أن التحمت صفوف المقاتلين ببعضها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يحملوا عليهم ونادى قائلا لهم: "والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلنهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة". فكانت وقعة بدر صبيحة يوم الجمعة السابع عشرة من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (١٣ مارس ٦٢٤م)، وانتهت عصر ذلك اليوم واستبسلفيها المؤمنون وقاتلوا طالبين تحقيق النصر أو الاستشهاد في سبيل الله، طامعين في دخول الجنة كما وعدهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أنزل الله تعالى ملائكته يوم بدر ليثبتوا المسلمين وفي مقدمتهم أمين الوحي جبريل، وقد قال النبي بعد أن عاينه يقود الملائكة: "هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه عدة الحرب". وفي حال النبي هذه وأصحابه يوم بدر نزلت هاتان الآيتان الكريمتان: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}**.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في عريشه، يتابع المعركة وقلبه متعلق بالله عز وجل ويدعوه تعالى بقوله: "اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ! اللهم نصرك الذي وعدتني اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم" فما زال يدعو ويتضرع إلى الله حتى سقط رداؤه عن منكبه فالتزمه أبو بكر فجعل يسوى عليه رداءه وهو يقول له مشفقا عليه مما هو فيه: "يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك". واستغرق رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاه ومناجاته لربه، حتى غفا غفوة خفيفة، ثم أفاق ضاحكا مستبشرا وقد أشاء نور وجهه على ضيائه، يقول لأبي بكر: "أبشر يا

أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع[1]. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من تراب وقذفها على وجوه قريش، وهو يقول: "شاهت الوجـوه". ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه يشد من عزائمهم ويقوي من هممهم ويرفع من معنوياتهم ويبشرهم بنصر الله لهم ويقول لهم: "شدوا... سيهزم الجمع ويولون الدبر، مـن قتل قتيلا فله سلبه ومن أسر أسيرا فهو له". فحمل المسلمون علـى الكفـار حملـة صـادقة تصدعت لها جموعهم وأنهارت أمامها عزائمهم وخارت قواهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، وهم يروون المسلمين يصولون ويجولون ويحصدون رقاب إخوانهم. فقتل من قتل وأسر من أسر، وفر من ميدان المعركة من فر، ناجيا بنفسه، وتتبعهم المـسلمون يقتلـون ويأسـرون ويغنمون.

وقد تحقق وعد الله للمؤمني حين أنزل تعالى فيهم: **{قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[2].

وكان النصر الذي وعد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكانت الهزيمة للمشركين المتربصين للإسلام البادئين بالاعتداء والعدوان. فما كاد يوم بدر ينتصف حتى إنجلت المعركة عن هزيمة قريش ومقتل سبعين من رجالها وأسر سبعين آخرين واستهشاد أربعة عشر رجل من المسلمين.

وقد قتل في هذه المعركة من أشراف قريش: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة بن ربيعة، وأبو جهل (عمرو بن هشام)، وأمية ابن خلف وابنه على وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام الأسدي، والعاص، أخو أبي جهل، وحنظلة بن أبي سفيان، أخو معاوية ابن أبي سفيان، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر السهمي، وعبيد والعاص ابنا أبـي أحيحة، والحارث بن عامر النوفلي، وطعيمة، عم جبير بن مطعم، والحارث بن زمعة وأبـوه وعمه عقيل، ونوفل بن خويلد الأسدي، أخو السيدة خديجة رضي الله عنهـا، والنـضر بـن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، وعمير بن عثمان، ومسعود المخزومي، أخو أم سلمة، وأبـو قيس، أخو خالد بن الوليد، وقيس بن المغيرة.

---

(1)غبار المعركة.
(2)الأنفال: ١٢، ١٣.

وقد تعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى قريش وأمر رجاله أن يحفروا قليباً[١] معجوراً في مكان المعركة وأن يلقوا فيه ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس القليب ينادي قتلى بأسمائهم فرداً فرداً، ثم سألهم قائلاً: "يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً".

وكان شهداء بدر أربعة عشر رجلاً هم: عبيدة بن الحارث المطلبي، عمير بن أبي وقاص الزهري، أخو سعد بن أبي وقاص، صفوان بن بيضاء، عمير بن عبد الخزاعي، عمير بن الحمام بن الجموح الأنصاري، معاذ بن عمرو بن الجموح السلمي، معاذ بن عفراء، وأخوه عوف، حارثة ابن سراقة الأنصاري، يزيد بن الحارث الخزرجي، رافع بن المعلي الزرقي، سعد بن خيثمة الأوسي، مبشر بن عبد المنذر، وعاقل بن البكير بن عبد ياليل.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يدفن هؤلاء الشهداء حيث قتلوا بملابسهم، دون تغسيلهم ودون صلاة عليهم، وهذا مقام الشهداء الذي بشر الله تعالى به عنهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وذلك في قوله تعالى: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[٢].

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي رواحة وزيداً ابن حارثة إلى المدينة ليزفا بشرى نصر المسلمين لأهلها، فوصلاها وقت انصراف المسلمين من دفن جثمان السيدة (رقية) ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو يجمع بين الفرح والحزن، الفرح بنصر بدر والحزن لوفاة ابنته وفلذة كبده، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه العالية وإيمانه الزائد بقضاء الله وقدره، كابد حزنه وأخفاه في قلبه حتى لا يفسد على المسلمين نشوة انتصارهم في بدر. وحمل رسول الله معه أسارى المشركين وساق أمامه ما غنمه منهم، وحين وصل إلى منطقة الصفراء، وهو عائد إلى المدينة، أمر بقتل اثنين من الأسرى وهما: النضر ابن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، وكانا من أشد المشركين إيذاءاً لرسول الله والمسلمين.

---

(١) القليب هو البئر المهجور الذي لا ماء فيه.
(٢) آل عمران: ١٦٩.

وكان وقع الهزيمة يوم بدر على قريش عظيما فجن جنون أهلها وسادهم الحزن، وركبهم الهم والغم وأدركوا سوء العاقبة والمصير، وقامت نسوتهم يندبن قتلاهم وينتحبن ويشققن جيــوبهن ويحثين التراب على رؤوسهن.

وكانت أشد النساء حزنا ونحيبا زوج أبي سفيان (هند بنت عتبة بن ربيعة) لمقتل أبيها وأخيها وعمها في بدر. وقد نذرت بألا تستحم ولا يقرب جسدها الماء ولا الطيب ولا تقرب فراش أبي سفيان حتى تأخذ بثأر قاتلي أهلها، ونذرت أن تأخذ بثأرهم على الأخص من حمزة قاتل أبيها وعمها.

ووقع الخبر وقع الصاعقة على رأس أبي لهب بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تخلف عن المشركين المقاتلين متعللا بمرضه وأناب عنه من يقاتل عنه، وحــزن حزنا شديدا على ما أصاب عصابة الكفر، وانقلب كمده وحزنه إلى حمى شديدة انتابت جسده وأتت عليه بعد هزيمة المشركين في بدر بسبع ليال، فانقلب إلى النار التي وعده الله بها هــو وزوجته[1].

هذا عن عن الظروف والأحداث التي اضطرت الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعــه إلــى غزوة بدر دفاعا عن الدين والدعوة والدولة، لذلك نستطيع أن تجمع على أن قتال والحــرب في هذه المعركة كان قتالا وحربا دفاعية. ونفس الأمر نستطيع أن نقوله عن غزوتــي أحــد والخندق اللتين وقعتا بعد غزوة بدر، التي كانت عميقة الأثر في نفوس المسلمين وفي نفــوس المشركين والمنافقين واليهود أعداء الإسلام والمسلمين. فأما المسلمون في المدينــة فقــد أدى انتصارهم إلى اشتداد سواعدهم وتقوية شوكتهم وتثبيت يقينهم بأن الله معهــم، فأصــبحوا لا يخشون قوة أعدائهم ولا يخشون إلا خالقهم وبــارئهم. كــذلك اطمأنــت قلــوب المــسلمين المستضعفين في مكة، الذين أكرهوا على البقاء فيها ولم يلحقوا بإخوانهم في المدينة، فازدادوا إيمانا على إيمانهم وثباتا على عقيدتهم وأدركوا أن يوم الخلاص بات قريبا. وكان رســول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس اغتباطا بهذا النصر وأكثر تفاؤلا وأملا في المــستقبل؛ رغــم إدراكه لتربص المشركين والمنافقين واليهود له وللإسلام.

فقريش لابد لها وأن تفكر في الثأر والانتقام ولن تسكت على ما جرى لها يوم بدر؛ الأمر الذي الأمر الذي يهدد كرامتها ويزعزع سيادتها على الحجاز وبين قبائل العرب. والمنافقون كــانوا

(1) في سورة المسد.

ألد أعداء الإسلام وأشد خطرا عليه، فهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويتمنون في داخلهم، القضاء على دعوى الإسلام وصاحب الدعوى ويتحينون كل فرصة للإيقاع بهما والنيل منهما.

أما اليهود، فهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه الكريم[1]، وقد تملكهم الحقد والحسد على المسلمين لنجاحهم في هزيمة قريش، وقد ظلت نفوسهم تغلي وتطفح بالمرارة والعداوة للإسلام سرا قبل غزوة بدر حتى رأوا أمر الإسلام يعلو بعد بدر، لم يطيقوا سرية العداوة فأعلنوها صريحة وجاهروا بها. ومنذ ذلك الحين أخذت العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة تنقلب إلى عداء ظاهر تطور واستحكم حتى أنهم أخذوا في الكيد للإسلام والتآمر عليه ونقض عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل الصراع بينهم وبينه إلى الحرب والقتال الذي بدأوا شرارته وأشعلوا نيرانه.

ولقد غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد بدر، غزوات صغيرة، لم يلق فيها عدوا ولم يقاتل، وهذه الغزوات هي: غزوة بني سليم (بالكدر)، وهي المنطقة التي كانت تسكنها هذه القبيلة، فقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ديارهم وقد بلغه تجمعهم لحربه مع بني غطفان، بعد عودته إلى المدينة من بدر في أوائل شهر شوال. وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مياه بني سليم بقواته ثلاث ليال دون أن يخرج أحد من بني سليم لقتاله، فرجع إلى المدينة دون أن يلق كيدا.

كذلك غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة (السويق)، وهي تنسب إلى السويق[2] الذي أخذه المسلمون من قريش في أعقاب فرارهم. وكان أبو سفيان، لما رجع إلى مكة من بدر، خرج في مائتي رجل من قريش ليبر بيمين قد أخذه على نفسه بألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة.

فوصل أبو سفيان برجاله إلى منطقة قرب المدينة يقال لها (العريض) فأحرق بعض نخلها، وقتل رجاله اثنين من الأنصار وجدوهما في حرث لهما، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة مهرولين هاربين بعد أن سمعوا عن لحاق النبي بهم حين علم خبرهم تاركين وراءهم سويقا كثيرا، اغتنمه المسلمون وعادوا به إلى المدينة، فعرفت لذلك هذه الغزة بغزة السويق.

---

(1) { **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** } [المائدة: ٨٢].
(2) السويق، هو طعام يتخذ من مدقوق القمح أو الشعير ممزوجا بعسل وسمن وهي ما نعرف عندنا بالعصيدة.

ولما رجع رسول الله من غزوة السويق غزا منطقة نجد يريد قبيلة (غطفان)، التي كانت قد تحالفت مع بني سليم لحربه، فوصل إلى منطقة (أنمار)، وهي ناحية من نواحي نجد، ومكث هناك شهرا دون أن يخرج إليه بنو غطفان لقتاله فعاد إلى المدينة دون أن يحارب.

ثم غزا، بعد ذلك، صلى الله عليه وسلم منطقة (نجران)، وأقام بها شهرا دون أن يلق أحدا من القبائل التي سمع عن تجمعها هناك واستعدادها لقتاله. وهكذا نرى أن كل هذه الغزوات التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوات دفاعية باغت بها عدوه قبل أن يستكمل ترتيبات هجومه على المدينة.

ولمحاربه تجارة قريش واسترداد بعض ما اغتصبه رجالها من المسلمين المهاجرين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة لقطع الطريق أمام تجارة قريش ولأبي سفيان، فيها (صفوان بن أمية) و(حويطب بن عبد العزيز)، وقد سلكت هذه القافلة التجارية طريقا غير طريقها المعتاد إلى الشام وسلكت طريق العراق، وكانت القافلة تحمل فضة كثيرة. وقد التقى زيد بهذه القافلة على ماء يقال له (القردة)، وهو من مياه نجد، فأصاب عيرهم وما فيها وهرب رجال القافلة. وقد زيد بالعير وما تحمل إلى المدينة، وقد قيدت الفضة التي استولوا عليها بمائة ألف درهم. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوزيع ذلك الفئ على المسلمين.

وتجددت أحزان بدر عند القرشيين بسبب ما حصل عليه المسلمون من غنائمهم. كذلك تملك الحقد والحسد قلوب يهود المدينة من تزايد انتصارات المسلمون على القرشيين، وبدأ يهود (بني قينقاع) عداوتهم للمسلمين وبدأت حربهم ضدهم بعد أن نقضوا عهد الصحيفة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتدائهم على إمرأة من المسلمين وقتلهم لرجل من المسلمين داخل سوق المدينة، ثم انسحابهم إلى حيهم وامتناعهم داخله وراء حصونهم خوفا من هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بثر الرجل المسلم.

وهكذا تعرض يهود بني قينقاع للحساب على ما وقع منهم، فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبهم وخطبوه من وراء حصونهم ودعاهم إلى الإسلام، وقال، وقال لهم: "يا معشر يهوج، احذروا من الله أن ينزل بكم ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنن ينبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم".

فرد اليهود على الرسول في صلف قائلين: "يا محمد، إنك ترى أنا قومك؛ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن النـــاس". وهكذا أعلن يهود بني قينقاع الحرب على رسول الله وعلى المسلمين، وتحدوا قوة الدولة التي ترعاهم وترعى عهدها وميثاقها معهم، وظنوا أن إخوانهم من يهود بني النضير وبني قريظة سوف يهبون لعونهم ومساعدتهم في حربهم ضد المسلمين، لكن أحدا لم يقم لنـــصرتهم حتـــى حليفهم عبد الله بن أبي بن أبي سلول لم ينجح في إقناع الرسول بفك الحصار عنهم، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصونهم مدة خمس عشرة ليلة واختبأوا في تلك الحصون كما تختبئ الجرذان في شقوقها، إلى هلال ذي القعدة حتى انهارت مقاومتهم واستسلموا. فقـــام ابن أبي سلسول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمكنه الله منهم وطلب لهم منه العفو، فوافق صلى الله عليه وسلم على خروجهم من المدينة خلال ثلاثة أيـــام تـــاركين أراضـــيهم وديارهم للمسلمين، فخرجوا من حيهم الكائن في وسط المدينة وارتحلوا إلى خارج المدينة نحو الشمال حيث يقيم أقرانهم من اليهود في منطقة (أذرعات). وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، وكانت شيئا كثيرا. وهكذا جنى بنو قينقاع على أنفسهم وجلوا عن وسط المدينة، وقـــد كـــانوا شوكة في حلق دولة الإسلام، بسبب بغيهم ونقضهم العهد ومبادأتهم بالعدوان.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية يوم أحد:

وكان وقع غزوة بدر وغزوة السويق قاسيا على أهل مكة، قابلوه بالحزن والألم، الذي سرعان ما تحول إلى حقد وثورة وغل في القلوب والنفوس ورغبة عارمة في الانتقام والأخذ بالثأر لما أصيب به يوم بدر من كفار قريش أحاب القليب ومن نجا من القتل منهم ومن أصحاب السويق وفر هاربا عائدا إلى مكة.

فمشي (عبد بن أبي ربيعة)، و(عكرمة بن أبي جهل)، و(صفوان بن أمية) في رجال من قريش ممن أصيب وقتل أبؤهم واخوتهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في عير قريش التي رجع بها سالمة تجارة، فقالوا: "يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعنا ندرك منه ثأرنا لمن أُلب منا". ففعلوا.

وفيهم أنز الله تعالى قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}**(1).

(1) الأنفال: ٣٦

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدوان على المسلمين، وقاد تجمعهم أبو سفيان وأُحاب العير وشاركهم في عدوانهم عدد من قبائل كنانة وأهل تهامة، ورصد مبلغ خمسون ألف دينار، هي أرباح القافلة التي نجت لقريش للإعداد للحرب.

ونجح أبو سفيان في تجميع جيش تكون من حوالي ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم من سائر القبائل بينهم مائتي فارس بخيولهم وعدتهم.

وتزود هذا الجيش بثلاثة آلاف بعير تحمل المؤنة والزاد. وخرج مع هذا الجيش عدد من النسوة في الهوادج التماسا للحفيظة وضمانا بعدم فرار الرجال. فخرجت هند بنت عتبة بن ربيعة مع زوجها أبي فسيان، وخرجت أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة مع زوجها عكرمة بن أبي جهل، وخرجت برزة بنت مسعود بن عمر الثقفية مع زوجها صفوان بن أمية، وخرجت ريطة بنت منبه بن الحجاج، أم عبد الله بن عمرو، مع زوجها عمرو بن العاص، وخرجت سلافة بنت سعد الأنصارية مع زوجها طلحة ابن أبي طلحة بن عبد العزى، وخرجت خناس بنت مالك، أم مصعب بن عمير، مع ابنها عزيز بن عمير.

وكان دور النساء في هذا الجيش دورا هاما قصدوا به تشجيع المقاتلين على القتال وقادتهن في ذلك هند بنت عتبة التي خرجت لتثأر لمقتل أبيها وأخيها وعمها يوم بدر. وقد استأجرت غلاما حبشيا (لجبير بن مطعم) يدعى (وحشى)، وهو ماهر في الرمي بالرمح والحراب، ووعدته بالعتق إذا هو قتل حمزة قاتل أبيها وعمها.

وقد خرج جيش مكة ليهاجم المدينة والمسلمين وليقض على دولة الإسلام التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم به بعدوان سافر، في أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٥م)، وقاد أبو سفيان هذا الجيش، وحمل لواءه طلحة بن أبي طلحة، وعلى فرسانه (خالد بن الوليد) في ميمنته، وعلى ميسرته (عكرمة بن أبي جهل)، وعلى رجالته (صفوان بن أمية). ثلاثة آلاف مقاتل خرجوا في أكمل استعداد وأتم تعبئة، من بينهم مائتان من الفرسان المدربين على القتال على ظهور الخيل، وسبعمائة من الدارعين المحصنين بالزرد والدروع الواقية، يحملهم عدد كبير من الركائب ويتبعهم حشد كبير من العبيد والغلمان لقضاء حوائجهم وحراسة متاعهم وخدمة النساء لمصاحبات للجيش. وخرج (وحشي) مع العبيد، وقد أغراه سيده بقتل حمزة قاتل (طعيمة بن عدي)، عم جبير بن مطعم، يوم بدر، كما أغرته هند بالعتق والمال الكثير إن هو نجح في ذلك.

وكانت قريش قد خرجت على خطة موضوعة وهي أن تفاجئ المسلمين في عقر دارهم قبل أن يستعدوا لملاقاتهم، من أجل ذلك كتمت قريش أمرها على المسلمين، وخرج جيشها، في سرية تامة نزل بوادي أحد، على نحو خمسة أميال من المدينة. ولولا أن (العباس بن عبد المطلب)، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد كتب إليه بخروج قريش، رغم عدم إلاسمه أنذاك، لأطبقت قريش على المدينة في غفلة من أهلها. وقد ذكر الرواة أن العباس كتب كتابا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بخبر قريش وبما أعدت له من الرجال والعتاد، وأنه بعث بهذا الكتاب مع رجل من بني غفار، فبلغ المدينة بعد مسيرة ثلاث ليال، والتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم عند (قباء) وسلمه الخطاب فدفعه رسول الله إلى (أبي بن كعب) فقرأه عليه فاستكتمه الخبر، لكن الخبر شاع بين أهل المدينة، وذلك ما كانت لا تريده قريش، فقد أرادت مباغتة المسلمين وهم دون استعداد للقتال. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيونه يستطلعون له خبر القوم، فجاءوا إليه وأخبروه بنزوله وادي أحد وقدروا له أعدادهم وعتادهم. وفي الصباح جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الرأي من أصحابه وجعلوا يتشاورون كيف يلقون العدو، وانتهت المشاورة بضرورة الخروج للقائهم خارج المدينة، ولو أن رأى الرسول قد كان في أول الأمر ضرورة التحصن في المدينة والدفاع عنها عند مهاجمة قريش لها.

قال ابن اسحق بصدد أمر الخروج أو البقاء: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها". وكان رأي ابن أبي سلول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم. فقال رجال من المسلمين ممن كان فاته يوم بدر: "يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا"، فقال ابن أبي سلول: "يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوهم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا". فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل بيته فلبس لأمته[1]، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم.

---

(1) اللأمة هي عدة الحرب من درع ومغفر وسلاح.

وقد ندم الناس لاستكراه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخـــروج، وقـــالوا "اســـتكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك". فلما خرج عليهم قـــالوا: "يـــا رســـول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليه وسلم" فقال لهم رسول اله صـــلى الله عليه وسلم: "قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يـــضعها حتى يقاتل وحتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم".

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود جيشه، خارج المدينة، للقاء جيش قريش، وقد عقد ألوية ثلاثة، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر، ودفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير. وكان عدد الجيش ألف مقاتل فـــيهم مائـــة مـــن لابسي الدروع. وكان خروجه صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة السادس من عشر شوال، وقد أمر على المدينة ابن أم مكتوم يصلي بالناس. وقد ظل يهود بني قريظة في مـــواطنهم، ولـــم يتحركوا بسبب دخول ليل يوم السبت عليهم الذي يحرم فيه القتال عندهم.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقود الجيش، حتى أتى مكانا يقال له (الشيخين) فعسكر به، وبات به ليلة، ثم تحرك في السحر بجيشه حتى بلغ بستانا بين مكة والمدينة فـــي منتصف الطريق، يعرف (بالشوط). وهناك انخذل عن الجيش ابن أبي سلول بثلث الجـــيش، ممن تبعه من قومه من المنافقين، بحجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـــد أخـــذ بـــرأي الصبيان الطائشين في الخروج ولم يأخذ برأيه بالبقاء في المدينة والتحصن بها. وقد أحـــدثت هذه الفعلة الشنيعة والطعنة المريعة خلخلة عظيمة في بناء جيش المسلمين وزلزلة شديدة فـــي نفوسهم؛ حتى لقد همت (بنو حارثة) من الخزرج و(بنو سلمة) من الأوس أن تحـــذو حـــذو أصحاب ابن أبي سلول في الانسحاب، لكن الله عصمهم بإيمانهم، فعادوا إلى صفوف الجماعـــة وساروا مع الجيش إلى حيث يسير. وما كان انسحاب ابن أبي سلول وأتباعه إلا مناورة مـــن رأس النفاق يحقق من ورائها أطماعه في رئاسة المدينة في حال هزيمة جيش المسلمين.

ووصل جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبل أحد(١)، وهو جبل مرتفع بـــه مـــسالك وشعاب وتقطعه عدة وديان، وهو يلتف على السهل الضيق الذي وقفت عنده قـــريش، وفـــي داخل هذا الجبل حفر تصلح للاختباء في داخلها ورمي النبال منها. ونزل رسول الله صلى الله

(١) وقد سمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبل آخر في منطقته.

عليه وسلم بجيشه على تل مشرف هناك يقال له (جبل عينين)، وهناك صف أصحابه وأعدهم للقتال جاعلا ظهورهم إلى الجبل يحميهم ووجوهم إلى المدينة يستقبلون الوادي ويشرفون عليه من أعلاه، وجعل صلى الله عليه وسلم خمسين من رماة النبل على جبل عينين، عليهم أميـــر هو (عبد الله بن جبير)، وأمرهم بأن يحموا ظهور المسلمين عند القتال، وألا يمكنوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وألا يبرحوا مكانهم هذا سواء كان النصر للمسلمين أم عليهم. وطلب منهم أن يرموا الخيل كلما أقبلت عليهم بالنبل، وأكد الوصية عليهم بألا يغادروا مواضعهم وإن رأوا أصحابهم أشلاء تتخطفهم الطير حتى يرسل الله إليهم بأمره، ودفع رسول الله صلى الله عليـــه وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير، أخي بني عبد الدار.

واستل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه (ذو الفقار)، وقال لمن حوله: "مـــن يأخـــذ هـــذا السيف بحقه؟"، فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة (سماك بن خرشه)، أخو بني ساعدة، فقال: "وما حقه يا رسول الله؟"، قال: "أن تضرب به العدو حتى ينحني"، قال: "أنا أخذه يا رسول الله بحقه"، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال فـــي الحـــرب إذا كانت، وكان إذا دخلها اعتم بعصابة له حمراء تعرف (بعصابة الموت) فاعتصب بهـــا فعلـــم الناس أنه سيقاتل وسيصول ويجول في القتال. فلما أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، وقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن".

وعلى الجانب الآخر، وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهمكا في صـــف جنـــوده، ظهر القرشيون في السهل المنبسط تحت تل عينين، وصار الجيشان وجها لوجـــه. وظهـــرت نساء قريش يمشين بين الصفوف ينشدون الأناشيد ويضربن الدفوف تحريضا لرجالهم علـــى القتال وإثارة للحمية والحماسة فيهم، وكانت هند بنت عتبة تنشد قائلة:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وبدأت المعركة، واقتتل الناس، وحمي الوطيس، وقام أبو سفيان ومن ورائه زوجته هند، وهي ترتدي زي المقاتلين من الرجال، وبقية النسوة يشجعون رجالهم على القتال وقاتل أبو دجانـــة حتى أمعن في الناس، فجعل لا يلقى أحدا من العدو إلا قتله. وكان من ضمن من قابلهم هنـــد فحمل عليها بالسيف، ولما ولوت علم أنها امرأة فلم يقتهل كرامة لسيف رسول الله صـــلى الله

عليه وسلم أن يضرب به إمرأة. وأبلى في القتال كل من على بن أبي طالب، ومصعب بن عمير، وسعيد بن الربيع. وأخذ حمزة بن عبد المطلب يقتل في الكفار ويحصد بسيفه رؤوسهم، وبدى في الميدان كالجمل الأورق[1]. وفي غمرة حصد حمزة لرقاب العدو تربص به وحشي ورماه غيلة بحربته فأصابته أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجليه فقتله.

وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين أول الأمر وصدقهم وعده، ووقعت الهزيمة بالمشركين فولوا فرارا مدبرين حتى انتهوا إلى مواضع نسائهم في مؤخرة الجيش. ولما رأى الرماة النصر يتحقق، وأيقنوا من انتهاء المعركة لصالحهم، تطلعوا إلى جمع الغنائم، ونسوا تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وتجاهلوا نصح قائدهم عبد الله بن جبير ولم يستمعوا له، وتركوا مواضعهم ونزلوا من أعلى الجبل حتى يشاركوا أقرانهم من الرجالة في جمع الغنائم.

وهنا، وبنظرة من القائد المحنك خالد بن الوليد، لمح هذا التصرف الخاطئ القاتل من رماة المسلمين، فاغتنم الفرصة وسارع باعتلاء جبل أحد بقواته محتلا مكان الرماة بعد أن تخلص من القلة القليلة التي ثبتت في مكانها والتزمت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى الجبل مع قائدهم ابن جبير. ومن أعلى الجبل أخذ خالد ورجاله يرمون المسلمين بنبالهم.، وفوجئ المسلمون بذلك الرمي فتغير سير المعركة وانقلب النصر الوشيك إلى هزيمة بعد أن ارتبكت الصفوف وهرب من هرب من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وقف يقاتل بسيفه في شجاعة نادرة غير غابئ بالموت. وقد ألقى على رسول الله حجر أصاب شفته وكسر إحدى ثنيتيه، وأُيب وجهه الكريم بجرح غائر على أثر ضربة في وجهه وجهها إليه (ابن قمئة)، وفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم توازنه فوقع على صخرة، وصاح صائح من المشريكن "أن محمدا قد قتل". ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع الوصول إلى أحد منحدرات الجبل بسلام بفضل التفاف أصحابه حوله ودفاعهم عنه بأجسادهم. وقد قام أبو عبيدة بن الجراح بإخراج حلقتي المغفر من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وامتص أبو سعيد الخدري الدم عن وجهه ثم ازدرده. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الدم عن وجهه الشريف وهو يقول: "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم".

وقد قاتل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون رسول الله حين وقع على الصخرة، وكانوا خمسة من الأنصار من بينهم (عمارة بن يزيد بن السكن"، الذي أستشهد في المعركة،

---

[1] الأورق هو المغبر اللون بسبب ما لحقه به من تراب وغبار المعركة.

وأبو دجانة، الذي ترس نفسه دون رسول الله وهو منحن عليه يقع نبل العدو في ظهره حتى كثر دون أن يتزحزح عن موضعه. وقاتلت أم عمارة (نسيبة بنت كعب المازنية) دفاعا عن النبي، وهي جريحة تنزف رجلها دما على أثر ضربة بالسيف ضربها ابن قمئة. ورمى سعد بن أبي وقاص بالنبل مدافعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل طلحة بن عبيد الله قتالا شديدا دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن أسحق: "ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها وقد كان رسول الله قد ضعف، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ:" أوجب طلحة[1] حين صنع برسول الله ما صنع".

ووقع الخوف في قلوب المسلمين حين سمعوا ابن قمئة ينادي بقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابن قمئة الليثي قد قتل مصعب بن عمير وظنه رسول الله لشدة الشبه بينهما فصرخ بذلك. قال ابن أسحق: "انتهى أنس ابن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين، وقد ألقوا ما بأيديهم من سلاح، فقال لهم: "ما يجلسكم؟" قالوا: "قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم"، قال: "فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل. ووجدت به يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه أحد إلا أخته، عرفته ببنانه.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف، وأصيب في فمه وكسرت ثنيتاه وجرح أكثر من عشرين جرحا، أصابه بعضها في رجله فعرج.

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل، قتله ابن قمئة، فلما قتل أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى علي بن أبي طالب، وقد قاتل علي مع من قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقاتل حنظلة بن أبي عامر، والتقى مع أبي سفيان بسيفه فغلبه، ولما استعلاه ليقتله رآه شداد بن الأسود، فضربه شداد فقتله وأنقذ أبا سفيان من القتل، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم باستشهاد حنظلة قال عنه: "إن صاحبكم لتغسله الملائكة"، فسألوا بعد المعركة، أهله ما شأنه؟ فسئلت زوجته عنه، فقالت: "خرج ليلة عرسه وهو جنب حين سمع المنادي ينادي للقتال ولم يتمكن من الاغتسال"، فغسلته الملائكة.

(1) أوجب طلحة - أي وجبت له الجنة ، كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق طلحة : "من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله" .

وقاتل قتادة بن النعمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُبيت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكانها بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

قال ابن أسحق: "وكان كعب بن مالك أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة، وتأكد من أنه لم يقتل كما زعم ابن قمئة. قال كعب: عرفت عيناه تضيئان تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنصت. فلما عرف المسلمون ذلك نهضوا به ونهض معهم صلى الله عليه وسلم نحو الشعب ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين".

ولما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أميه بن خلف، وهو يقول: "أي محمد، لا نجوت إن نجوت"، فقال القوم: "يا رسول الله أيعطف عليه بسيفه رجل منا؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعوه"، فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة، وانتقض بها انتقاضة تطايرنا بها تطاير الشعراء[1] عن ظهر البعير إذا انتقض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها[2]. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدم، ومات عدو الله قبل أن يصل إلى مكة عند (سرف)[3]، ودخلوا به مكة ميتا.

وبينما رسول الله في الشعب معه أولئك النفر من أصحابه، إذ اعتلت فرقة من جيش قريش الجبل، وكان على الخيل خالد بن الوليد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحابه "اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا"، فقاتل القرشيين عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى اهبطوهم من الجبل.

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر يوم أحد قاعدا من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودا.

ولما انقضت الحرب، وأراد أبو سفيان الأنصراف أشرف على جبل أحد ونادى بأعلى صوته قاصدا أن يسمع المسلمون نداءه، فقال: "أفيكم محمد؟" فلم يجبه أحد منهم، فقال: "أفيكم ابن أبي قحافة؟ (يعني أبا بكر)، فلم يجيبوه، وقال: "أفيكم ابن الخطاب؟" فلم يجيبوه، فقال: "أما هؤلاء

---

(1) الشعراء: ذباب له لدغ.
(2) تدأدأ منها - أي تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.
(3) سرف: مكان على ستة أميال من مكة.

فقد كفيتموهم". فلم يملك عمر نفسه أن قال: "يا عدو الله إن سفيان: "أنعمت فعال[1]، وإن الحرب سجال يوم بيوم، أعل هبل[2] فقال رسول الله: "قم يا عمر فأجبه، فقل الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار".

فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: "هلم إلي يا عمر"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إئته فانظر ما شأنه"، فجاءه، فقال أبو سفيان لعمر: "أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدا؟"، قال عمر: "اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن"، قال: "أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر"، لقول ابن قمئة لهم أنه قتل محمدا. ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: "إن موعدكم بدر للعام القابل"، فقال رسول الله عليا بن أبي طالب، وقال له: "أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل، أي قادوها إلى جنوبهم ليستعملوها وقت الحاجة، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم"، فخرج علي في آثارهم فرآهم قد جنبوا الخيل وامتكوا الإبل وتوجهوا إلى مكة.

وكان على القرشيين أن يتمموا انتصارهم بغزو المدينة لو أرادوا إسقاط دولة الإسلام بها، لكنهم لم يفعلوا ذلك وعادوا إلى مكة بعد أن احتفلوا بنصرهم في أحد ولعل أهل مكة قد خافوا من أن ينقلب نصرهم الذي حققوه إلى هزيمة لو هم هاجموا المدينة لما فيها من مسلمين ويهود؛ فاكتفوا بقولهم أنهم ما جاءوا إلى أحد إلا للثأر من هزيمتهم يوم بدر، وأنهم سيتدبرون أمر غزو المدينة في المستقبل القريب. كذلك ربما ظن المكيون أنهم ليسوا بحاجة لمهاجمة دولة الرسول في المدينة بعد هزيمة أحد، وأن هذه الدولة ستسقط من تلقاء نفسها على أثر هذه الهزيمة، وأن اليهود وأحلافهم من أتباع ابن أبي سلول سوف يتكفلون بذلك وسوف يغنوهم عنه، وهم يعلمون بأن ابن أبي سلول يحتفظ في المدينة بثلث الجيش الذي انسحب به.

كذلك فإن من الأسباب التي جعلت القرشيين يعودون إلى مكة دون الهجوم على المدينة هو تأكدهم من نجاة محمد صلى الله عليه وسلم من القتل وحتمية عودة الروح القتالية للمسلمين بعد أن استوعبوا درس الهزيمة التي وقعت لهم بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم. فضلا عن أن قوات قريش كانت قد أنهكت في المعركة وقتل منهم من قتل وجرح

---

(1) أنعمت فعال: أي بلغنا في فعلنا.
(2) أعل هبل: أي إظهر دينك.

الكثيرون، فقد ثبت أنه قتل من رجالهم في هذه المعركة اثنان وعشرون رجلا وأنهم فقدوا معظم خيولهم في المعركة.

هذا ولم يبارح القائد العظيم ميدان المعركة بمجرد انتهائها، بل كان عليه أن يبق مكانه مستعدا لاحتمال جولة أخرى مع عدوه، وكان عليه يصحح لرجاله ما وقعوا فيه من أخطاء أدت إلى الإنكسار بعد النصر، كما كان عليه أن يتفقد من فقد من أصحابه في هذه المعركة فيدفن من استشهد منهم ويداوي من جرح ويخفف عن رجاله وقع الهزيمة على أنفسهم، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أتباعه ليلة المعركة على جبل أحد. وفي الصباح تفقد صلى الله عليه وسلم أخبار من استشهد من رجاله، فكانوا سبعين رجلا، ستون منهم من الأنصار وعشرة من المهاجرين. ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أعداد قتلى المسلمين سأل عن الصحابي الجليل (سعد بن الربيع)، فقال صلى الله عليه وسلم: "من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ في الأحياء هو أم في الأموات؟"، فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: "أنا أنزر لك يا رسول الله ما فعل سعد". فنظر ابن مسلمة فوجده جريحا في القتلى وبه رمق. قال ابن مسلمة: "فقلت له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟" قال: "أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام، وقل له إن سعد ابن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا كل خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم أنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم سوء وفيكم عين تطرف، قال ابن مسلمة: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره".

قال ابن هشام أن رجلا دخل على أبي بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها، فقال له الرجل: "من هذه؟" فقال أبو بكر: "هذه بنت رجل خير مني، سعد بن الربيع، وكان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرا، واستشهد يوم أحد".

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب ببطن الوادي فوجده، وقد بقر بطنه عن كبده ومثل به، فجدع أنفه وأذناه. قال ابن أسحق: "ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها، يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن (يقطعن) الأذان والأنف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خلاخيل وقلائد وأعطت قلائدها وقرطها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها".

وحين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث لعمه، أسد الله وأسد رسوله، قال: "لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم"، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: "والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب". قال ابن هشام: "ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قال: لن أصاب بمثلك أبدا، ما وقفت موقفا أغيظ إلي من هذا"، ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله".

ولقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}**[1]، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ونهى عن المثلة. وأمر رسول الله بحمزة فغطي ببردة، ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات، ثم أتي بالقتلى فيوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

قال ابن أسحق: "وقد أقبلت، فيما بلغني، صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخا شقيقا لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام: "إلقها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها"، فقال لها الزبير: "يا أمه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك بأن ترجعي"، فقالت: "ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك. لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله". فلما جاء الزبير إلى رسول الله فأخبره بذلك، قال: "خل سبيلها"، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه، وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون"، واستغفرت له. ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن ودفن مع حمزة في قبره (عبد الله بن جحش)، وحمزة خاله، وقد مثل به كما مثل بحمزة إلا أنه لم يبقر كبده، وقد أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: "أدفنوهم حيث صرعوا".

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة فلقيته (حمنة بنت جحش)، فلما لقيت الناس تنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها

---

[1] النحل: ١٢٦، ١٢٧

حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن زوج المرأة منها لبمكان"، لما رأى من تثبتها عند نعي أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

وكان من بين من خرج لاستقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم والاطمئنان على سلامته امرأة من بني دينار من الأنصار نعي إليها استشهاد أبيها وأخيها وابنها وزوجها، فلم تكترث وسألت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما علمت أنه بخير وتأكدت من ذلك برؤيته قالت له: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل".

قال ابن أسحق: "ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له". فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما سمع رسول الله بكائهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب مسجده يبكين عليه، فقال: "ارجعن يرحمكن الله، فقد أسيتن بأنفسكن[١] ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن النواح على الموتى.

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناول سيفه (ذو الفقار) إبنته فاطمة، وكذلك ناولها زوجها علي سيفه، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اغسلي عن هذا دمه يا بنية فإنه والله لقد صدقني اليوم، وكذلك قال علي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كنت صدقت القتال فلقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة".

وكان يوم أحد يوم السبت منتصف شوال، وقد نزل في غزوة أحد ستون آية من آيات سورة (آل عمران)، فيها تقرير لما وقع فيها وفيها درس هام من أخلاقيات الحرب في الصبر والنظرة للحياة ومعنى الموت والعتاب لمن أستحق العتاب[٢]. وقد بدأت الآيات بقوله تعالى:

{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

---

(١) أسيتن بأنفسكن، أي عزيتن بأنفسكن.
(٢) الآيات من ١٣٨ ـ ١٧٢

الْكَافِرِينَ.... وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وهكذا من عرضنا لأحداث معركة أحد نستخلص أخلاقيات لحرب التالية:

- الحرلاب في هذه المعركة حرب عدوانية بدأتها قريش لأخذ ثأرها لما أصابها يوم بدر.
- الرسول يجابه هذا العدوان ويدافع عن دولته، رغم فارق التسليح والعتاد بينه وبين العدو، وكان أمامه سبيلان، إما أن يتحصن في المدينة ويدافع عنها، وكان هذا رأيه، وإما أن يلاقي العدو خارج المدينة، وكان هذا رأي شباب المسلمين.
- الرسول لا يتنازل عن قراره بعد أن ارتدى عدة الحرب.
- الرسول يتخير موقعا هاما لجيشه عند جبل أحد وبضع الرماة في موضع إصابة العدو، ويظهر بذلك حنكة كبيرة في إدارة المعركة.
- الرسول يشدد أوامره على الرماة بألا يبرحوا أماكنهم تحت أي ظرف من الظروف إلا بعد أن يأتيهم الأمر بذلك منه ضمانا لسلامة ظهر جيشه.
- الرسول يقود المعركة باقتدار ويحرز المسلمون النصر أول الأمر حين التزم الجميع بأوامره ونفذ الخطة التي وضعها للمقاتلين، لكن مخالفة الرماة لأمره بترك مواقعهم من أجل المشاركة في جمع الغنائم حول النصر إلى هزيمة.
- الرسول يقاتل بنفسه ويظهر شجاعة كبرى يوم أحد رغم تعرضه للموت، وكذلك كبار صحابته الذين التفوا من حوله يحمونه بأجسادهم ويفدونه بأرواحهم.
- الرسول يستجمع قواته على الجبل ولا يغادره انتظارا منه لجولة أخرى مع العدو، لكن العدو ينسحب من الميدان خوفا من ردة فعل المسلمين.
- الرسول يتفقد أصحابه القتلى والجرحى فيصلي على من استشهد منهم ويقوم بدفنه مكان مصرعه، ويقوم بمداواة الجرحى منهم.
- الرسول لا يمثل بقتلى المشركين كما فعلوا هم وينهي عن المثلة.

- الرسول يعد قريش بعودة النزال ببدر العام القابل، ويظهر للعدو بأن الهزيمة هزيمة مؤقتة، وأن النصر في العودة سيكون للمسلمين.
- تنزل آيات القرآن في سورة (آل عمران) تعون من هزيمة أحد، وتعتبرها درسا يستفيد منه المسلمون في معاركهم القادمة، وتعاتب من يستحق العتاب. وتعد الشهداء من رجالهم بالجنة وتلقن الناجين منهم درسا غاليا في الصبر والثقة في نصر الله.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية يوم غزوة الخندق:

هذه هي ظروف وأحداث غزوة أحد، التي اتضح لنا من خلالها أن الحرب فيها من جانب المسلمين كانت حربا دفاعية، كذلك الحال في غزوة الأحزاب والمعروفة بغزوة الخندق، فإنها كانت حربا دفاعية تعرضت فيها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهجوم غادر من جانب قريش وغطفان ويهود بني قريظة.

ولتفصيل ما وقع في هذه الغزوة نقول أن أعداء المسلمين هاجموا المدينة بثلاثة جيوش بلغ عدد رجالها عشرة آلاف رجل يدعمهم ستمائة من الفرسان وعدد كبير من المحاربين على الإبل تحت قيادة أبي سفيان بعد أن تحالفت قريش مع اليهود ومع قبيلة غطفان للقضاء على دولة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

وقد استمالت قريش عددا من أشراف اليهود من رؤساء بني النضير، الذين نزحوا من مواطنهم بالمدينة واستقروا في (خيبر)، وهم: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، مع نفر من بني وائل، وخرجوا حتى قدموا مكة، فدعتهم قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبينوا لهم أنهم سيكونون معهم حتى يستأصلوا شأفة المسلمين. وقد قالت قريش لأعيان اليهود: "يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه وأنتم ولي بالحق منه" فنزل فيهم قول الحق تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}**[1].

(1) النساء: ٥١، ٥٢.

ولما قال اليهود ذلك قريش فرحوا ونشطوا لما دعاهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا لذلك واستعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب المسلمين وإخبارهم باتفاقهم مع قريش على ذلك، فاستجاب لهم من استجاب من بني مرة وبني سليم وبني أشجع وبني أسد وغيرهم. وقد وعد اليهود أن يعطوا غطفان ثمار سنة من نخيل خيبر إذا تم لهم النصر على المسلمين.

وخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة، وبنو مرة وقائدها الحارث بن عوف بن حارثة المرى، وبنو أشجع وقائدها مسعر بن نويرة، فكان جميع القوم الذين وافوا المدينة يوم الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب خرجوا في شهر شوال سنة خمس من الهجرة، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر وإجماع المشركين على حربه وتحزب أحزابهم، وكان في إمكانه أعداد ثلاثة آلاف مقاتل لمواجهة العدو الغازي المعتدى، ولم يكن أمامه سوى مواجهة الهجوم حيث لم يعد له خيار غير ذلك.

وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحصن المدينة ويمنع وجود أي ثغرة في دفاعاتها ينفذ العدو منها. والمدينة محصنة من ناحية الجنوب والشرق والغرب بجبال الحرة، ومنطقة ضعفها الوحيدة هي من ناحية الشمال حيث تتبعثر مساكنها في أرض واسعة مفتوحة لا جبال فيها. ولتأمين ذلك الجانب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر خندق فيه. وكان (سلمان الفارسي) قد أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر هذا الخندق بين الحرتين، وهو تكتيك فارسي معروف في حروبهم، فوافقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك. وعمل الجميع في حفر الخندق حتى الأطفال وحتى يهود بني قريظة شاركوا في الحفر، وقد ضرب لرسول بنفسه المثل في المشاركة في الحفر، وقد تم حفر الخندق خلال ستة أيام، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم معسكره بالقرب من قمة جبل (سلع) والخندق أمامه، وجعل النساء والذراري في حصون المدينة من ناحية مساكن بني قريظة.

ولقد اصطفت قوات المسلمين ومن أمامها القوات المهاجمة، وقد حال بينهما الخندق، الذي فوجئ الأعداء به، وقضوا على ذلك الحال نحو أسبوعين يتباولون الاتهامات شعرا ونثرا ويتراشقون بالسهام من على البعد.

وقد قتل، بسبب هذا التراشق، ثلاثة من المهاجمين وخمسة من المدافعين.

ولم يكن مع المهاجمين سلالم أو أدوات حصار يستطيعون بواسطتها أن يتخطوا الخندق. وقد حاول بعض فرسانهم عبور الخندق بخيولهم لكنهم فشلوا في ذلك، وكان المسلمون يقومون برد من ينجح منهم في اجتياز الخندق أو يقتلونه قبل أن يجتازه. وقد قام رماة المشركين برمي المسلمين فأصاب سعد بن معاذ سهم، أصاب كاحله وجرحه بليغا كان سبب موته بعد الخندق.

وطال التربص والانتظار بالأحزاب أمام الخندق، وليس بينهم وبين المسلمين إلا تبادل الرمي بالسهام والنبل من بعد. وخشي حيي بن أخطب أن تفلت الفرصة من يديه وأن تسأم قريش وغطفان طول المقام فترجع كل قبيلة من حيث أتت، لاسيما والطقس شتاء، والأرض مجدبة وقد أوشك ما معهم من علف لدوابهم أن ينفد، وقد أصاب خيولهم وإبلهم الهزال من قلة الزاد.

ورأى ابن أخطب أنه لا سبيل لاقتحام المدينة إلا من ناحية بني قريظة، وكان بنو قريظة، حتى ذلك الوقت، على عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب ابن أخطب إلى زعيمهم كعب بن أسد. فأغلق كعب دونه بابه، فجعل يحتال عليه حتى دخل إليه في حصنه، فقال له: "يا كعب، إنما جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش وسادتها وغطفان وقادتها وقد تعاهدوا أن يستأصلوا محمدا ومن معه". فقال كعب: "جئتني والله بذل الدهر وبسحاب لا ماء فيه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاءا". فلم يزل حيي بكعب يعده ويغريه حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن يسير معهم. وقال له حيي: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدما أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك". فنقض بذلك كعب بن أسد عهده لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين. ولم يكن هذا التهديد لدولة النبي ناجما عن قوة جيش بني قريظة المرابط خلف قوات النبي كما يدعي المستشرق (كايتاني) والمستشرق (وات) بل بسبب تخطيط الأحزاب بأن يهاجم جيشهم المدينة من جهة بني قريظة وبمساعدتهم لهم وبذلك يطعنوا جيش النبي من الظهر ويفسدوا خطة النبي بصدد حفر الخندق حول المدينة.

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان من غدر بني قريظة ونقضهم عهدهم معه، بعث إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج في نفر من أصحابه، وقال لهم: "انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقا فألحنوا لنا لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كان على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به الناس".

فانطلقوا فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: "من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد فشاتمهم سعد ابن معاذ وشاتموه. فقال له سعد بن عبادة: "دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة"، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه، ثم قالوا: "عضل والقارة[1]"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين".

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتى الناس العدو من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن وبدر النفاق من بعض المنافقين حتى قال (معتب بن قشير)، أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط". وقال (أوس بن قيظي)، أحد بني حارثة بن الحارث: "يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة"، وقد قال أوس ذلك القول على ملأ من رجال قومه.

ويورد القرآن الكريم هذه المشاهد ويصور حال المسلمين آنذاك بقوله: **{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}**[2]، وقوله تعالى: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}**[3] **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}**[4]. ورجع حيي بن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له من حمل بني قريظة على الغدر بالمسلمين، فانتعشوا ونشطوا وقويت روحهم المعنوية. وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى ابن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له من حمل بني قريظة على الغدر بالمسلمين، فانتعشوا ونشطوا وقويت روحهم المعنوية. وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى ابن أخطب أن يمهلهم عشرة أيام يستعدون فيها. وأجمع رؤساء المشركين على أن يقوموا بالهجوم على معسكر المسلمين عجوما عاما، وأخذ فرسانهم يطوفون بالخندق يتلمسون نقطة ضعف فيه ينفذون من خلالها إلى داخل المدينة. ونجحوا في الوصول إلى مكان ضيق من الخندق أغفل

(1) [كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه.
(2) الأحزاب: ١٠، ١١.
(3) الأحزاب: ١٢، ١٣.
(4) الأحزاب: ١٨.

المسلمون حراسته، فعبره من فرسانهم عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد ود. وكان عمرو بن عبد ود بطلا مغوارا لا يزال محتفظا بقوته وسمعته بالشجاعة رغم بلوغه سن التسعين من العمر. فلما عبر الخندق هو وأصحابه نادى على المسلمين يطلب المبارزة، فتقد علي بن أبي طالب لمنازلته، فلما عرفه سخر به وقال له: "لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك"، فقال له علي: "ولكنني والله أحب أن أقتلك"، فأثار ذلك غضبه وحماسه فنزل عن فرسه فعقره بالسيف، ثم أقبل علي على فسدد إليه ضربة قوية من سيفه فاتقاه على بدرقته فانقدت، فتقهقر له علي، وجعل عمرو يلاحقه بضربات سريعة، وجعل علي يتقهر له ويخادعه حتى خيل إلى عمرو أن هناك من يهاجمه من خلفه، فأدار رأسه لينظر، فعاجله على بضربة خاطفة أطاحت بساقه عن جسده، فأمسك عمرو بساقه المقطوعة فضرب بها وجه على، لكنه أخذ يترنح بعد ذلك حتى سقط على الأرض، فأقبل عليه علي فأغمد فيه السيف حتى قتله، فولى أصحابه هاربين.

وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق، وسقط نوفل بن عبد الله عن فرسه في الخندق فحمل عليه الزبير بن العوام بسيفه فشقه نصفين.

وفي صباح اليوم التالي عبأ المشركون رجالهم وفرقوا كتائبهم، وأرسلوا نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة مقاتلة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك وقتا طويلا من الليل، وما استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من المسلمين أن يتحرك من موضعه ولا صلى أحد منهم ظهرا ولا عصرا ولا مغربا ولا عشاء حتى كشف الله المشركين ورجع كل فريق إلى منزله؛ فلما صار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موقع قبته أمر بدلالا فأذن وأقام للظهر، وأقام بعد كل صلاة إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات. وقال صلى الله عليه وسلم: "شغلونا عن الصلاة الوسطى، يعني صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا".

وهم بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلا، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل وزيدا بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة. وكان الخوف على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان. وحصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل إمرئ منهم الكرب؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصالح غطفان على أن

يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن ينسحبوا ويخذلوا بذلك قريشا واليهود. فأبت ذلك الأنصار، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان أراد من ذلك. وفي هذا الموقف تظهر اثنتان من أخلاق الحرب في السيرة النبوية إحداهما شفقة رسول الله على أتباعه من الضائقة والكرب الذي هم فيه فأراد موادعة غطفان، وثانيهما موافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار على ما أرتأوه مخالفا لما أرتآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتثاله لرأيهم.

إلى هذه اللحظة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد عملوا كل ما يستطيعون عمله في مجابهة هذا العدوان الغادر، وأفرغوا كل جهد لهم في الدفاع عن دينهم ومدينتهم، حتى لم يبق في طوق البشر من مدخر. وهنا تدخلت عناية الله تعالى لتأخذ بيد أولئك المؤمنين المجاهدين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فأخذ سير المعركة يتطور ويتجه إلى اتجاه إلهي لا تستطيع قوة من البشر أن تغيره أو تقف في طريقه، فالله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره ويخذل من يخذله.

وكان مما صنع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من أسباب النصر، أن جاء (نعيم بن مسعود الأشجعي) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يتدبر أمره، وكان نعيم من دهاة العرب، من أشجع من غطفان، وكان قد هداه الله إلى الإسلام فاعتنقه وأسره ولم يعلنه لأحد إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حين وفد إليه خفية من قومه. وعرض نعيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمل الخديعة والحيلة والوقيعة بين الأحزاب من المشركين. فوافقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك على اعتبار أن الحرب خدعة، والخدعة أحد أسلحتها.

فذهب نعيم، أول الأمر، إلى بني قريظة، وكان عشيرا ونديما لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون أمر إسلامه وظنهم أنه لا زال على الشرك، فقال لهم: "يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم"، قالوا: "صدقت لست عندنا بمتهم"، فقال لهم:"إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم: البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهر تموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا فرصة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع

القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمـــدا حتى تناجزوه". فقالوا: "لقد أشرت بالرأي".

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجالات قريش: "قــد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا، وإنه قد بلغني أمرا قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عني"، فقالوا: "نفعل"، قال: "تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قــريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم. فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجـــالكم فــلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا".

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: "يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلـــي، ولا أراكم تتهموني"، قال: "صدقت ما أنت عندنا بمتهم"، قال "فاكتموا عني"، قالوا: "نفعل، فما أمرك؟"، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: "إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الإبل والخيل، فاستعدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمدا"، فــرد علــيهم اليهــود بقولهم: "إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد علمتم ما نال من تعدى منـــا فـــي السبت، ومع ذلك فنحن لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنـــا؛ فإنا نخشى إن نالت منكم الحرب واشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه". فلما رجع الرسل بذلك قالوا: "صدقنا والله نعيم بن مـــسعود". فردوا إليهم الرسل وقالوا: "والله لا نعطيكم رهنا أبدا فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم". فقال بنو قريظة: "صدق الله نعيم ابن مسعود"، وخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم.

وفي ذلك الوقت الذي تفككت فيه الروابط بين اليهود وقريش وغطفان وسأموا طول المقام أمام الخندق، وجاع الرجال والدواب، قرروا الانسحاب. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قـــد دعا على الأحزاب بقوله: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم اهـــزمهم وزلزلهم" واستجاب الله تعالى لدعاء نبيه ورسوله، فبعث عليهم الريح العاتية في ليلة شـــاتية

شديدة البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم وتقوض خيامهم، فظنوا أن قوات المسلمين قد هاجمتهم وهم نيام، فولوا هاربين منهزمين مذعورين خاسرين إلى ديارهم راحلين.

ومع إشراقة الصباح، نظر المسلمون تجاه العدو من الخندق فلم يجدوا أحدا من جمعهم الحاشد، فقد فر الجميع هربا إلى ديارهم؛ فأيقنوا بأنهم مؤيدون بعناية الله وأن عين الله راعية لهم، وازدادوا إيمانا على إيمانهم بأنهم على الحق، وأن الله ناصر لمن ينصره، وقد وعد سبحانه المؤمنين بالنصر (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم). وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدة الشكر لله تعالى، ولما رفع رأسه من سجوده قال لأصحابه: "إنهم لن يغزوننا بعد اليوم ولكنا نغزوهم". ثم هلل وهلل معه أصحابه قائلين: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء قبله ولا بعده".

وكانت غزوة الأحزاب أخر غزوة من المشركين للمدينة، كما حدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى من القرآن في هذه الغزوة سورة تسمت (بسورة الأحزاب)، تصف فيها أياتها ما وقع في هذه الغزوة وما تحقق فيها من نصر للمسلمين، يقول تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**}[1] هذا ولم يستشهد من المسلمين يوم الأحزاب إلا ستة نفر، ومات سعد بن معاذ من الجرح الي أصاب كاحله يوم الأحزاب.

ولم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة حرب وقتال، تتجلى فيها قوة المقاتلين وبأسهم في القتال، بل كانت معركة أعصاب وامتحانا للعزائم واختبارا للقلوب، ومن أجل ذلك نجح فيها فريق وخسر فريق، نجح فيها المؤمنون الصابرون الثابتون وخسر فيها الكافرون والمنافقون. فبمقدار ما أظهر المشركون والمنافقون من الجزع والخوف والريبة والشك وضعف العزم؛ أظهر المؤمنون المتقون من الصبر وقوة الاحتمال ما أظهر قوة إيمانهم وشدة ثقتهم بالله

(١) الأحزاب: ٩ - ١٣

ونصره لهم وإيمانهم بأن ذلك ابتلاء وامتحان لهم. فلما نجحوا في هذا الامتحان وصبروا لهذا البلاء، أعانهم الله برحمته وأنقذهم وأزال عنهم كيد عدوهم.

وقد بين الله تعالى أخلاقيات حرب المؤمنين للمشركين في هذه المعركة بقوله تعالى: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}**(١).

وكان النصر على الأحزاب نصرا عظيما للمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم وبدى محمد صلى الله عليه وسلم أما عرب الجزيرة، أقوى رجل فيها، وزادت، تبعا لذلك، قوة دولته في المدينة. وكان ما حدث خلال هذه الغزوة، من تآمر يهود بني قريظة وخيانتهم لعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبررا لحربهم وتطهير المدينة منهم والخلاص من خطرهم وإقلاقهم الدائم لمسلمي المدينة أثناء الحصار. وكان من الضروري لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجتث هذا الورم الخبيث الكامن في أحشاء المدينة حتى يخلص الجسد من هذا الدرن اللعين، وحتى لا يتكرر ما حدث منهم إذا ما تعرضت المدينة لهجوم خارجي من قبل أعدائها.

ولذلك لم يضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوقت بعد أن ارتحلت قريش وغطفان من حيث أتيا وقام بتنفيذ ما أمرت به السماء، فقد نزل جبريل الأمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: "أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟"، قال: "نعم" قال: "ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير الي بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزلهم". فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس أن يصلوا العصر في أرض بني قريظة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب رضي الل عنه، فدفع إليه لواءه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار إلى بني قريظة في ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا، وذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرون من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وأسرع المسلمون إلى بني قريظة، ومنهم من صلى بالطريق وأخذ الأمر على وجه

(١) الأحزاب ٢٢ ٢٥

السرعة، ومنهم من لم يصل حتى وصل إلى هناك حسب الأمر، فصلى متأخرا وفي غير وقت صلاة. وعندما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسامح مع الطرفين.

ولما رأى بنو قريظة المسلمين، دخلوا كالجرذان في حصونهم، واختبأوا بها، ودخل معهم حيي بن أخطب، سيد بني النضير، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحصار ورأوا أنهم سيموتون جوعا لو واصلوا الاختباء والتحصن، قال لهم سيدهم كعب بن أسد: "يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم"؛ قالوا: "ما هي؟" قال: "نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله قد تبين لكم أنه لنبي مرسل وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم"؛ قالوا: "لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره"؛ قال: "فإذا أبيتم على هذه، فعلم لنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء"؛ قالوا: "نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم؟"، قال: "فإن أبيتم على هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة"؛ قالوا: "نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يحدثه من كان من قبلنا، ومن أحدث منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما". وألقى باللائمة على حيي بن أخطب الذي حملهم على الغدر بالمسلمين ونقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما اشتد حصار المسلمين لبني قريظة وأرفوا على الهلاك أرسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يطلق سراحهم على نفس شروط أخوانهم من بني النضير التي قضت بخروجهم من ديارهم بحيث يحملون أموالهم معهم ويتركون سلاحهم، فلم يقبل رسول الله منهم، وإنما طلب منهم أن ينزلوا لحكمه دون شروط لأن جريمتهم كانت أشنع من جريمة نظرائهم من بني النضير.

ولما فقد اليهود الأمل هرب بعضهم مع أهله ليلا، واعتنق البعض الآخر الإسلام إنقاذا لأرواحهم وخرج من حصنه إلى حصن المسلمين رافعا الراية البيضاء. وأرسل اليهود، في آخر الأمر، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يقبل في شأنهم حكما حليفا لهم من الأوس، واختاروا لذلك (أبا لبابة بشير بن عبد المنذر)، فوافقهم عليه وأرسله إليهم، فلما

رأوه قام إليه الرجال وبكت النساء والأولاد في وجهه فأشفق عليهم، وسألوه ك "هل ننزل على حكم محمد؟" قال: "نعم"، وأشار بيده إلى حلقه، أي الذبح. وندم أبو لبابة على قوله ولـم يـأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ذهب إلى المسجد فربط نفسه في أحد أعمدته، وقـال: "لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت"، ثم تاب الله عليه وأنزل في توبته: **{وَآخَـرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ}**(١).

وحاول عبد الله بن أبي، حليفهم، أن يشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقبـل منه ووافق على حكم رجل آخر من الأوس فاختاروا (سعد بن معاذ)، الذ كان يعالج وقتـذاك من إصابة فيكاحل رجله يوم الخندق في خيمة في المسجد النبـوي تـشرف عليهـا (رفيـدة الأنصارية) إحدى الصحابيات الجليلات، فحملوا سعدا إلى رسول الله على حمار. وأخذ سـعد من اليهود عهدا أن ينفذوا ما يحكم به، فأعطوه بذلك، فحكم بأن يقتل الرجال وتسبى الذرارى والنساء وتقسم الأموال غنيمة للمسلمين. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد حكمـت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبع سماوات"، فنزلوا على حكم رسول الله، الذي أمر محمد بن مسلمة بتكتيف رجالهم وحبسهم في دار (كيسة بنت الحارث)، من بني النجار، وأخرج النساء والذارارى فكانوا في ناحية، وجعل عليهم عبد الله بن سلام.

وجمع ما وحد في حصونهم من أمتعة وسلاح وأثاث وثياب. وانصرف رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلى المدينة يوم الخميس السابع من ذي الحجة، ثم أمر برجال بني قريظة فـأدخلوا المدينة وحفر لهم أخدودا في السوق، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه يشاهدون قتل بني قريظة فأخرجوا جماعات جماعات وضربتأعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة رجل وقيل تسعمائة. وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة بني قريظة على المقـاتلين، بعد أن أخرج منها الخمس لمستحقيه، بواقع ثلاثة أسهم للفارس وسهما للراجل.

وقد كان بين قتلى بني قريظة من أشرافهم: حيى بن أخطب وكعب بن أسد، ولم يقتـل مـن نسائهم إلا امرأة واحدة قاتلة، كانت قد طرحت رحاها من فوق الحصن على خلاد بن سسويد بن الصامت أثناء حصار الخندق فقتلته، فقتلت به. وقد نزل في بني قريظة قوله تعالى: **{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُـوبِهِمُ الرُّعْـبَ فَرِيقًـا تَقْتُلُـونَ**

(١) التوبة: ١٠٣.

وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1] ووزعت ووزعت الغنائم على المقاتلين بعد استبقاء خمسها، كما وزعت السبايا وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يفرق بين أم وولدها حتى يبلغ الغلام وتحيض الجارية.

ولتحليل ما وقع لبني قريظة وما لا قوه جراء جرمهم، وللرد على انتقاد بعض المستشرقين الأوربيين وعلى رأسهم كايتاني وفرانسسكو جابريللي لما وقع لهم واتهامهم لرسول الله بالقسوة واستعظامهم قتله لرجالهم وحسبانهم أن ذلك مخالف لقوانين الحروب وأعرافها، نقول بأن اليهود قد حنثوا بعهدهم وأيمانهم مرات عديدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه لم يعد يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد بعد الذي فعلوه يوم الخندق. كذلك فإنهم حكموا فيهم حليفهم سعد بن معاذ، وهم الذين اختاروه بإرادتهم، ظنا منهم أنه سيشفع لهم، وهم يعلمون مكانة سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن سعد أدانهم بنص التوراة التي يؤمنون بها، فقد جاء في سفر (تثنيي الاشتراع) ما نصه في حكم أخلاقيات الحرب في التشريع اليهودي: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك)[2]. فليسأل السائل إذن عما كان يفعله اليهود والمشركون بالمسلمين لو انقلبت الدائرة عليهم؟

إن القضاء الذي قضاه النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة في أخلاقيات الحرب يعد عدلا وحكمة وصوابا، والجزاء الذي وقع على بني قريظة هو جزاء مجرمي الحرب على مر العصور، الحكم على مجرمي الحرب بتهمة الخيانة في الحرب هو القتل ولا شيء غيره جزاء (الخيانة العظمى)، والخيانة العظمى في الحرب تعرض من تقع عليهم إلى الفناء والدمار والهزيمة والقتل، فمن ارتكبها هو الذي يستحق القتل، ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة بما أصاب أقواما ودولا من فناء ودمار وهزيمة بسبب الخيانة العظمى، وما وقع للمتسببين فيها من جزاء عسير.

---

(1) الأحزاب: ٢٦، ٢٧.
(2) تثنية الاشتراع، إصحاح ١٠ – ١٥.

كذلك فإن من أخلاقيات الحرب، في تقتيل بني قريظة بعد غدركم الذي قاموا به ونقضهم العهد الذي فعلوه، ما يدل على حكمة بالغة، إذ أن كثيرا من الناس يطمع في رحمة المسلمين وإنسانيتهم وتسامحهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم عند المقدرة، والظن بهم خيرا بعد أن يقعوا في قبضة يدهم، وكان ذلك ما يشجعهم على تكرار الإساءة للمسلمين ورجائهم العفو مرة بعد الأخرى. وهذا ما طمع فيه بنو قريظة، إلا أن سعدا بن معاذ، رضي الله عنه حكم عليهم بالقتل والسبي لأنه كان يشعر بأن غدر بني قريظة لو نجح لعصف بكيان دولة الإسلام تماما، وأن المسلمين لو سامحوهم لعادوا بعد ذلك إلى تكرار مكرهم وخيانتهم وخداعهم، لذا كان سعد معهم حازما، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة وأن للعطف موضعه وأن للحزم موضعه أيضا.وأن الأعداء يتمادون في غيهم وكيدهم إذا ما وقع التهاون معهم، فلابد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعا كما أبيد بنو قريظة الذين جاء إعدامهم درسا لمن عاش أيامهم ولمن يعيش بعدهم. وكان في القضاء على بني قريظة أمر الانتهاء من العدو في الداخل والتفرغ لمواجهة العدو الخارجي.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية في أمر فتح مكة:

وهكذا، كما رأينا فيما سبق، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يبدأ بالعدوان، ولم يطلب الحرب لذاتها، وهو لم يأت ليكون محاربا ولكن الله أرسله هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، ولما فرضت عليه الحرب كان خير من يديرها وخير من يكسبها لنصرة الحق وإزهاق الباطل. وقد شاهدناه صلى الله عليه وسلم يُجبر على الحرب يوم بدر وأُحد والخندق، كذلك نجده يجبر على الحرب في فتح مكة ويكتب الله له النصر في فتحها بعد أن بشره بذلك، فرسول الله فتح مكة لنكث قريش أيمانها معه بعد عهدها، وقد أمره الله تعالى وأمر المسلمين أن يقاتلوا من نكثوا عهدهم معهم، وقال تعالى: {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون} [١].

ولقد أجبرت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعد أن نقضت شروط صلح الحديبية التي عقدت فيه هدنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدة عشر سنوات " يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ". وقد جاء هذا النقض حين ظاهروا

(١) التوبة: ١٢

حلفاءهم من (بني بكر) على حلفاء المسلمين من (خزاعة)، وقاتلوا معهم بالرجال وأمدوهم بالسلاح وأصابوا منهم ما أصابوا، ولم تكن قريش، بأي حال من الأحوال، ترصد لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يستقر له بال في دولته الوليدة بالمدينة، كذلك لم ترض أن تتحول السيادة على الحجاز من بلدها مكة إلى المدينة، وقد كانت لها السيادة الروحية والاقتصادية على الحجاز وعلى العربية بأسرها زمنا طويلا.

وبرغم الهزيمة التي وقعت لقريش مؤخرا في غزوة الأحزاب، إلا أنها باتت تتحين الفرص للنيل من محمد صلى الله عليه وسلم ومن دولة الإسلام في المدينة وارتأى القرشيون، عن غباء، أن نصرتهم لبني بكر على خزاعة سوف تحقق لهم انتصارا قد يعوض ما حلق بهم من هزائم من قبل، وأن بني بكر في حالة انتصارهم، سيكونوا ساعدا لهم في معاركهم القابلة مع محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان العداء قديما بين بني بكر وبني خزاعة، وكانت بينهما حروب قبل الإسلام، فلما وقع صلح الحديبية دخلت بنو بكر في عقد مكة وعهدهم، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده. وأثناء هذا الصلح، في مدة الهدنة، أراد بنو بكر أن يصيبوا ثأرهم من خزاعة، فخرج (نوفل بن معاوية) في نفر من بني بكر وكمن لجماعة من خزاعة عند ماء بأسفل مكة يقال له (الوتير)، فأصابوا منهم رجالا واقتتلوا، فأعانت قريش بني بكر بالسلاح وقاتلك معهم بعض القرشيين متنقبين حتى أجازوا خزاعة إلى الحرم، وكان من بين رجال قريش: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأحنف، وقد قتلت قريش من خزاعة عشرين رجلا، وحرج (عمرو بن سالم الخزاعي) في أربعين راكبا من خزاعة فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه، فقام صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه، وهو يقول: " لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي "، وكان ذلك سبب فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة.

وقبل فتح مكة وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عدة سرايا وغزوات، كان الهدف منها تأمين الدولة التي أقامها صلى الله عليه وسلم، والعمل على ملاحقة المتحفزين للقضاء عليها والضرب على أيديهم بيد من حديد، ومباغتتهم قبل أن يباغتوه حتى تتثبت أقدام الدولة الجديدة.

ومن الأعداء الذين كانوا يتربصون بدولة الإسلام قبيلة (بني بكر بن كلاب)، التي كانت تسكن شمال شرقي المدينة، وكانوا لا يزالون على شركهم، وقد نمى إلى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يعدون العدة لغزو المدينة بقصد القضاء على دولة الإسلام بها، فباغتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأن أرسل إليهم مع مطلع القرن السادس للهجرة، قائده الشاب الجرئ (محمد بن مسلمة)، على رأس ثلاثين من فرسان المسلمين، قبل أن ينتهوا من جميع حشودهم، ونجح ابن مسلمة في هزيمتهم وترويعهم، وقد ظنوا أن هذا العدد من الرجال هو طليعة لجيش كبير سيرسله رسول الله إليهم، فهربوا تتخطفهم الطير وتركوا وراءهم غنائم كثيرة استولى المسلمون عليها، وعادوا بها إلى المدينة منتصرين، وبذلك أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم درسا قاسيا لقبيلة بني بكر، ولمن تسول له نفسه محاربته من القبائل الأخرى المتحفزة لقتال المسلمين والمتربصة لدولة الإسلام.

وما أن انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني بكر، حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه على رأس مائتي فارس، في جمادى الأولى من العام السادس للهجرة، لغزو قبيلة بني لحيان وأخذ ثأر المسلمين منها لما قاموا به من غدر وقتل عدد من رجاله غدرا، وكان على رأس القتلى اثنان من أحب صحابته وهما: (خبيب بن عدي) و(عاصم بن ثابت)، وحتى يباغت رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ويوقع بهم على غرة، أظهر أنه يريد الشام، فسلك أولا طريق الشام، ثم عدل شمالا حتى نزل منازل بني لحيان عند (عسفان)، وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ماء لهم يعرف (بالرجيع)، فوجد القوم قد هربوا وامتنعوا برؤوس الجبال، فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقواته دون قتال بعد أن أدخل الرعب في قلوب بني لحيان، وبعد أن أظهر لهم، ولغيرهم من القبائل، قوة المسلمين، عاد وهو يقول: " آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون ".

وبعد ليال من عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من غزوة بني لحيان، هاجمت خيل من قبيلة (غطفان) يبلغ عددها حوالي العشرين، إبلا للمسلمين كانت ترعى بمنطقة (الغابة)، وهي ماء على طريق المدينة، وكان مع الإبل رجل يمني من بني غفار هو وزوجه، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة، فلما علم المسلمون بذلك تسابقوا بخيولهم ليلحقوا بالمهاجمين، وتراص الفرسان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر عليهم (سعد بن زيد)، وطلب منهم اللحاق بالأعداء، فخرجوا في طلبهم، ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرسان في رجاله حتى نزل بالجبل من (ذي قرد)، وهي ناحية خيبر، وتلاحق الناس واستطاعوا قتل من لحقوا به، وهرب الباقون إلى مواطن غطفان بعد ذلك، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قواته بالعودة إلى المدينة بعد أن استردوا أموالهم وأرهبوا عدوهم.

وفي نفس الشهر جمادى الأولى، من نفس العام بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (زيد بن حارثة) إلى منطقة (العيص)، في طريق المدينة القادم من الشام، ومعه سبعون فارسا، لما بلغه أن عيرا لقريش قد أقبلت تحمل بضاعة من الشام، فتعرض زيد ورجاله لها، وأخذوا ما فيها من فضة كثيرة كانت في القافلة لصفوان بن أمية، وأسروا رجال القافلة، وكان من بين الأسرى (أبو العاص بن الربيع)، زوج (زينب) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخت السيدة خديجة لأمها وأبيها.

وقدم زيد بالأسرى والغنيمة إلى المدينة؛ فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى به المقاتلون غنيمة من بينهم بعد استخلاص الخمس منه لمستحقي الفئ. ولما أتى أبو العاص المدينة طلب من زوجته أن تسأل أباها أن يرد إليه ماله وما كان أمانة عنده من أموال الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال السرية

وأخبرهم بالأمر وخيرهم بين أن يعيدوا لأبي العاص، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته أو يحتفظوا بها، فآثروا إرجاع الحاجة لأهلها، كرامة لأبي العاص، فخرج أبو العاص من المدينة حتى أتى مكة وأدى للناس أماناتهم، ثم عاد إلى المدينة ليعلن إسلامه ويشهره على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها على جمادى الأولى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (زيد بن حارثة) إلى (بني علبة) بناحية (الطرف) في خمسة عشر رجلا، فأصاب عشرين بعيرا تركها أصحابها الأعراب وفروا هاربين.

وفي شهر شعبان من العام السادس للهجرة، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (عبد الرحمن بن عوف) في سبعمائة من أصحابه إلى (بني كلب) بدومة الجندل، ليعرض الإسلام عليهم، فأسلم شيخهم (الأصبغ بن عمرو)، وكان نصرانيا، واسلم معه غالب قومه، وبقى من بقى على ملته وذمته على أن يدفع الجزية، فصالحهم ابن عوف على ذلك، وتزوج ابنة الأصبغ، وقدم بها المدينة، فنجب منها ابنه سلمة بن عبد الرحمن.

وفي نفس الشهر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (علي بن أبي طالب) في مائة رجل إلى (بني سعد بن بكر) بفدك، وهي قرية خارج المدينة، وذلك لأنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون معاونة يهود خيبر على غزو المدينة، وكان يهود خيبر بالفعل يعدون لذلك، فسار علي إليهم بمن معه من الرجال إلى ماء يسمى (الهمج) بين خيبر وفدك فلما أحس القوم بهم هربوا تاركين وراءهم خمسمائة بعير وألفي شاة، فاستولى المسلمون عليها وقدموا إلى المدينة دون أن يحاربوا.

وهكذا ما كادت السنة السادسة للهجرة تنقضي حتى نجحت دولة الإسلام في المدينة في القيام بواجب الدفاع الهجومي من خلال تلك المناوشات التي إما كانت لرد عدوان أو لإرهاب عــدو ينوي العدوان. وقد أدت هذه المناوشات غرضها على أكمل وجه، فإنه ما كادت هــذه الــسنة تنتهي حتى كانت هيبة دولة الإسلام قد استقرت في نفوس القبائل فيما حول المدينـــة وفيمـــا ورائها، وأخذ السلام يسود بين المسلمين وجيرانهم، وأخذ رسول الله صلى الله عليــه وســلم يعمــل علــى تنظــيم أمــور دولتــه والتطلــع إلــى توســعتها خــارج نطــاق المدينــة.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية في نشر الدعوة الإسلامية خارج جزيرة العرب:

ومثلما فعل صاحب السيرة النبوية صلى الله عليه وسلم في الدخول في الحــرب مــع أعدائه دفعا لعدوانهم، أو إفشالا لخطط التجهيز لحربه، كذلك حارب من الحكام من وقف حائلا دون شعبه لتبليغ دعوته ورجال السلطة الذين رفضوا دعوته بعد كتابته لهم.

وكان من ثمرات (صلح الحديبية)، أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل ومهد للدعوى طريقها لكي تصل إلى القلوب. فبعد أن كان المسلمون محصورين في المدينة منقطعين عــن باقي العرب في شبه الجزيرة في باديتها وحواضرها، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل في منازلها، وأن يختلطوا بالناس في ديارهم؛ فيشرحوا لهم مبادئ سامية وأخلاق عالية ومثل كريمة وأهداف عظيمة وخير لمعتنقيه في الدنيا والأخرة. فأخذ الناس، بما يرون من سلوكيات المسلمين وأحوالهم وبما يسمعون ويشهدون من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فــيهم؛ يقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه، ففشا الإسلام بين كثير من القبائل وأمن به كثير من الناس.

وكما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على نشر الإسلام في بــلاد العــرب، أخذ يعمل على نشره في الممالك والأقطار التي تحيط بها، فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم ويدعو شعوبهم إلى الإسلام، فقد جاءت دعوته للناس كافة وعامة وحمل صلى الله عليه وسلم أخر دعوة من السماء إلى الأرض، وكلف بتبليغ أخر نداء رباني لعباده، واختار رســول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه رجالا يعرفهم بحسن الأداء وقوة الإبلاغ فبعث بكل كتــاب رجــــلا مــــنهم إلــــى ملــــك مــــن الملــــوك وحاكمــــا مــــن الحكــــام.

فبعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي الحجة سـنة سـت للهجرة، أخرج ستة نفر من رجاله، كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم، ومع كل واحد منهم كتابا إلى حاكم الجهة المتوجه إليها، فكان أول رسول بعثه صلى الله عليه وسلم هو (عمرو بن أمية الضمري) بعثه إلى نجاشي الحبشة. وبعث (دحية بن خليفة الكلبي) إلى قيصر الروم (هرقل). وبعث (عبد الله بن حذافة السهمي) إلى كسرى ملك فارس. وبعث (حاطب بن أبي بلتعة اللخمي) إلى المقوقس (قيرش)، صاحب الإسكندرية وعظـيم القـبط (الملكـانيين) بمصر، ونائب الإمبراطور الروماني على مصر. وبعث (شجاع بن وهـب الأسـدي)، إلـى الأمير الغساني العربي (الحارث بن أبي شمر)، أمير الغساسنة، حلفاء الروم بجنوب الـشام. وبعث (سليط بن عمرو العامري) إلى هوذة بن علي، رئيس بني حنيفة باليمامة، وبعث (عمرو بن العاص)، بعد إسلامه، إلى أبناء الجلندى (جيفر وعبد) حكام عمان. وبعـث (العـلاء بـن الحضرمي) إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين. و (المهاجر بن أبي أمية المخزومي) إلى ملك اليمن الحميري. وكتب رسول اله صلى الله عليه وسلم إلى كل شيوخ القبائل يـدعوهم إلـى الإسلام. وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء الملوك والحكام لا يقبلون كتابـا غير مختوم فأمر الرسول بصياغة ختم له، فصيغ له ختم من فضة ونقشت عليه عبارة " محمد رسول الله "[1].

وقد جاء نص كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم كـالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهـدى، أمـا بعـد

(1) ظل هذا الخاتم يختم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وفاته، وختم به من بعده الخلفاء الراشدون حتى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد سقط هذا الخاتم من عثمان في بئر (أريس)، فصيغ له ختم غيره.

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريوسيين (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [1].

أما كتابه صلى الله عليه وسلم إلى (كسرى إبرويز) ملك الفرس، فقد جاء نصه كالتالي: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس ".

وقد جاء كتابه إلى (النجاشي) ملك الحبشة، كالتالي:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى ".

وجاء كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط كالتالي:

" سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

---

(1) آل عمران: ٦٤.

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [1].

التوقيع: محمد رسول الله ".

ولقد أبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذمته بتبليغ دعوته إلى كل حكام وملوك العالم أنذاك ليبلغوا تلك الدعوة لشعوبهم. ومن هؤلاء الملوك والرؤساء من استقبل الرسل والكتب استقبالا طيبا مثل هرقل والمقوقس والنجاشي وردوا عليها ردا طيبا، ومنهم من أساء استقبال الرسل ومزق الكتب وعاب في ذات رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل كسرى ملك فارس، ووقف بذلك عقبة وحائلا بين شعبه والتعرف على الدين الجديد والوقوف على تعاليمه السمحة.

وقد كان رد المقوقس، من أرق الردود التي وردت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد جاءنص رد كتاب المقوقس إلى النبي كالتالي:

" باسمك اللهم...

من المقوقس إلى محمد، أما بعد:

فقد بلغني كتابك وقرأته وفهمت ما فيه. تقول أن الله تعالى أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبينا، فكشفنا يا محمد في علمنا من خبرك فوجدناك أقرب داع إلى وأصدق من تكلم

(1) آل عمران: 64.

بالصدق. ولولا إني ملكت ملكا عظيما لكنت أول من سار إليك لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والمتقين.

والسلام عليك ورحمته وبركاته إلى يوم الدين ".

وبعد أن بلغ محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدى الأمانة على مستوى العالم وصدع لأمر ربه بأن يكون للناس جميعا نذيرا وبشيرا وليبلغهم بأنه آخر الأنبياء والرسل من عند الله تعالى، وأن الله بعثه وأنزل عليه آخر نداء من السماء إلى الأرض؛ ولما لم يستجب حكام شعوب العالم آنذاك لهذه الدعوى وذلك النداء، كان عليه وعلى من يتولى قيادة دعوة الإسلام من بعده أن يعلموا على إزالة هؤلاء الحكام الذين وقفوا عقبة أمام شعوبهم والإسلام، حتى يضعوا هذه الشعوب، بعد إزالة هذا العائق، أمام حقيقة خير دعوة جاء بها رسول آخر الزمان لعبادة الله الواحد الديان.

ومن هنا انطلقت راية الجهاد والفتح لنشر السلام في الآفاق ولمحاربة الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، وقد جاء الأمر من الله بذلك في عديد من الآيات، منها قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [1]. وفي قوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [2]. وفي قوله تعالى: {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [3]. وقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [4].

كذلك حثت بعض آيات القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على حرب المشركين الكافرين وقتالهم، إما حتى يفيئوا إلى أمر الله ويدخلوا في الإسلام وإلا يموتوا وهم كافرون، ومن ذلك قوله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [5]. وقوله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [6]، وقوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [7]، وأمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب، الذين لم يتقبلوا دعوى الإسلام، حتى يذعنوا للمسلمين ويدينوا لهم بالطاعة ويدفعوا لهم الجزية، وذلك في قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

(١) المائدة: ٣٥.
(٢) التوبة: ٤١.
(٣) التوبة: ٨٦.
(٤) الحج: ٧٨.
(٥) التوبة: ١٢.
(٦) التوبة: ٥.
(٧) البقرة: ١٩٣.

حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (١).

كذلك أمر الله تعالى المسلمين بأن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم من الكفار وألا يكونوا هم البادئين بالعدوان، وذلك في قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (٢).

وقد وعد الله تعالى المقاتلين في سبيله بالجنة في قوله تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} (٣)، وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (٤). وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ـــ ١٠ـــ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـــ ١١ــ} (٥). وعن أبي هريرة رضي الله عنه: " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل ؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله ".

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية في فتح خيبر:

لم يكن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم لخيبر غزوا وعدوانا، ولكنه كان دفعا لخطر من المحتمل وقوعه من جانب يهود أهل هذه البلدة، ومن لاذ بهم وهاجر إلى مدينتهم من يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة. ومن المعلوم أن رؤساء يهود هذه الجماعات لجأوا إلى خيبر وتولوا الرئاسة فيها، وصاروا يدبرون من هناك جولة ثانية في اللقاء مع المسلمين انتقاما وثأرا لما حل بهم على أيديهم.

وفي صلح الحديبية ألغى التحالف الذي كان معقودا بين يهود خيبر وقريش وغطفان وفزارة، وقد وقعت قريش وغطفان وفزارة على هذا الصلح، لكن يهود خيبر لم يوقعوا عليه، وبذلك صاروا في حل من أمانهم مع دولة المسلمين، وأن صار في خيبر تجمع كبير من يهود بني قيقاع وبني النضير وبني قريظة. فبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن أدرك

(١) التوبة: ٢٩.
(٢) البقرة: ١٩٠.
(٣) النساء: ٧٤.
(٤) التوبة: ١١١.
(٥) الصف: ١٠، ١١.

خطورة الأمر، وكعادته بمهاجمة عدوه الذي يتربص به قبل أن يهاجمه، وقبل أن ينجح عدوه في توحيد صفوفه وضمه إليه من لا زال على الشرك من قبائل العرب البادية خارج المدينة.

وكان أهل خيبر على يقين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف لا يتركهم بعد أن علم استعدادهم لمحاربة وتجييش قواتهم لقتاله، وبعد أن صارت بلدتهم مأوى لزعماء قبائل اليهود المنهزمين والفارين من المدينة بعد أن أوقعت القوات الإسلامية بهم الهزيمة. كذلك هم يعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف لا يغفر لهم ما فعلوه من التحـــريض علـــى غزو المدينة، وجمع الأحزاب في غزوة الخندق.

وحين قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج لفتح خيبر، لم يكتم خبر الجهة المتوجـــه لغزوها، كما كان يفعل في غزواته وسراياه السابقة، بل أعلن أن وجهته خيبر، حتى يكون من سيشارك في هذه الغزوة على دراية بخطورتها ومدى صعوبتها، لما عرف عن أهلهـــا مـــن استبسال في قتالهم من وراء حصون حصينة وحيازتهم على أسلحة وذخيرة كبيرة وعلى أقوات ومحاصيل وافرة تكفل لهم الصمود في حصونهم مهما طالت مدة حصارهم.

ومن المعلوم أن خيبرا قرية زراعية غنية تقع شمال المدينة، وكانـــت بهـــا مـــزارع واسعة، كذلك بها أعداد كبيرة من أجود النخيل التي تنتج أجود أنواع التمر على الإطلاق فـــي شبه الجزيرة العربية. وكانت اليهود قد تملكت أرض خيبر واستقروا فيها وزرعوهـــا، قبـــل الإسلام، بعد أن وفدوا إليها من أرض فلسطين بعد طرد الإمبراطور الروماني (تيتوس) لهـــم سنة سبعين للميلاد. وكان اليهود الذين استوطنوا خيبر والمدينة عموما على علم كبير ودراية واسعة بشئون الزراعة لأنهم كانوا في الأصل مزارعين في مدن فلسطين. وقد عرف هـــؤلاء اليهود الذين سكنوا المدينة وخارجها كيف يستثمرون الأرض ويزرعون بها أجود المحاصيل.

وقد ابتنى اليهود في خيبر حصونا منيعة متفرقة بين مزارعها، لتحميهم تلك الحصون من أي هجوم خارجي قد يتعرضون له،وذلك كعادة اليهود حيث استقروا حيث يقيمـــون فـــي مجمعات خاصة لها حصونها المنيعة وتعرف باسم (الجيتو). وقد بلغ عدد حصون خيبر ثمانية حصون منيعة، خمسة منها عند مدخل خيبر وثلاثة في مؤخرتها. وتمثل الحـــصون الخمـــسة المتقدمة خط المواجهة وقد عرف ثلاثة منها: اثنان باسم (الشق) والثالـــث باســـم (النطـــاة).

ولقد استاء المنافقون كثيرا من تحرك المسلمين نحو خيبر ن وعلموا أن وضع اليهود هناك سينتهي مع كل قاعدة يستندوا عليها، لذا فقد أخبر رأس المنافقين عبد الله بن أبي يهود خيبر بتحرك المسلمين وشجعهم على الثبات والمقاومة. وكان في المدينة أيضا بعض اليهود في مجموعات صغيرة، لم يشاركوا في غدر بني قريظة لذا لم يتعرض لهم المسلمون وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أرواحهم وأموالهم في ذمة الله وذمة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر، ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولا، وأرادوا إضعاف معنويات المسلمين بالتحدث عن قوة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بمطالبهم بما عليهم من ديون لهم واستعجالهم في ذلك.

وحاول يهود خيبر الاستعانة بحلفائهم من عرب غطفان، على أن يؤدوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين، لكن غطفان لم تقبل عرضهم خوفا على أنفسهم من خطر القوة الإسلامية بعد أن تأكدوا من تعاظمها في صلح الحديبية.

تحرك الجيش الإسلامي نحو خيبر وعدده ألف وخمسمائة مقاتل، ومنهم مائتا فارس، وقد أمن الجبهات الأخرى، فهناك هدنة مع قريش، والأعراب لا يستطيعون القيام بعمل ما بعد الغزوات والسرايا التي سارت إلى كل جهة منطلقة من المدينة، ويهود المدينة ليسوا سوى أفراد لا يوضع لهم أي حساب. ولما كان وضع اليهود والمنافقين في المدينة على هذا الشكل، وقد أعلموا يهود خيبر بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو بلدتهم، وقد فعلوا، لذا أعلن رسول الله أنه قاصد خيبر ولم يور كعادته.

وقال ابن إسحق: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أشرف على خيبر استنصر ربه، كعادته عند غزو كل قرية، وقال لأصحابه: " اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا بسم الله ".

وكانت قد تقدمت الجيش جماعة من رجال الاستطلاع بإمرة (عباد بن بشر) أحد قادة الحرس النبوي، كعادة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند التقدم بجيشه للغزو، خوفا من كمائن العدو ولكشف الطريق، والقبض على جواسيس العدو قبل أن يتعرفوا على قوة الجيش.

وربما نتساءل كيف خاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه الذي لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل بالسير إلى خيبر وفيها أحد عشر ألفا من المقاتلين، تحميهم حصونهم وتجمع أبنيتهم وتخزن الأقوات الكثيرة. وفوق كل هذا فهناك أربعة آلاف من المقاتلين الأعراب، خارج المدينة، الذين يمكنهم أن يتحركوا خلف الجيش الإسلامي، ويجعلوه محصورا بين قوتين أقلها أكثر من ضعف عدده، وأكبرها تزيد على ستة أضعافه، وأن حركة الجيش كله ستكون في خيبر فوق أرض العدو، وأكثر المسلمين يجهلون تلك الأرض؟

والواقع فإن كل المعارك التي خاضها المسلمون أول عهدهم لم تكن لينطبق عليها التقييم والحساب العسكري، فهي كلها بهذا الحساب العسكري تكون خاسرة، ولكنها نجحت جميعا، وكانت نتيجتها النصر المؤزر، كما رأينا. بل نستطيع أن نقول بأن أكثرها كان معارك حاسمة، والسبب في ذلك المعنويات القتالية العالية التي كان يتمتع بها المسلمون؛ فثقتهم بنصر الله وتأييده لهم لعبت الدور الرئيسي في إحراز النصر على عدوهم، وشجاعتهم بل ومخاطرتهم واستبسالهم في القتال من أجل إحراز النصر أو الحصول على الشهادة والفوز بها كانت السبب الثاني في غلبتهم لأعدائهم، ثم هناك عدم تفكيرهم إلا في الحرب التي هم بصدد خوضها وترك كل ما يجول في أذهانهم ويشغل بالهم من أمور الدنيا وجعل القتال خالصا في سبيل الله لإعلاء كلمته ورفع راية دينه. كذلك فإن عبقرية القائد العسكرية وفراسته في شئون الحرب، وهي فطرة إلهية ونعمة منه سبحانه وتعالى لنبيه. كذلك فإن الرعب الذي أنزله الله تعالى في نفوس أعدائهم وحرص هؤلاء الأعداء على الحياة والخوف من الموت؛ كل هذه الأشياء لعبت دورها في تلك المعارك، وما كانت غزوة خيبر إلا إحدى هذه المعارك وصورة عنها.

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيشه إلى ضواحي خيبر، فبات هناك، وفي الصباح توجه إلى خير، كعادته في عدم الهجوم ليلا. وأرسل عليا فدعا أهل خيبر إلى الإسلام، فلم يقبلوا، فبدأ الهجوم الإسلامي. وكانت خيبر قسمين: القسم الأول يمثل خط الدفاع الأول وفيه خمسة حصون، ثلاثة منها في منطقة تسمى (النطاة)، واثنان في منطقة تسمى (الشق)، والقسم الثاني يمثل خط الدفاع الثاني وفيه ثلاثة حصون بدأ الهجوم الإسلامي من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود باتجاه إخوانهم في تيماء ووادي القرى وفدك ونحو بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة النطاة، وقد لقى المسلمون مقاومة عنيفة، حتى فتح اليهود

عدة مرات أبواب الحصون، واندفعوا نحو المسلمين يقاتلونهم،حتى إذا رُدوا علـى أعقـابهم دخلوا الحصون وأغلقوا عليهم أبوابها. وقاوم اليهود في النطاة مقاومة عنيفة، وخاصـة أمـام أول الحصون هناك وهو حصن (ناعم) الذي فُتح بعد مقاومة كبيرة بقيادة علي بن أبي طالب. ثم انتقل المسلمون لحصار الحصن الثاني (القموص) في منطقة النطاة بقيـادة (الحبـاب بـن المنذر)، وقد تم الاستيلاء عليه بعد قتال ضاري، وقد قُتل فيه زعيم اليهود (سلام بن مـشكم)، وحصل المسلمون من هذا الحصن على غنائم كثيرة فرجت ما كانوا فيه مـن ضـائقة، هـذا إضافة إلى الأسلحة الكثيرة التي حصلوا عليها منه، وكانت مخزنة فيه. أما الحصن الثالـث، وهو (حصن ابن أبي الحقيق)، فقد حاصره المسلمون وقاوم مدة، ثم قطع المسلمون الماء عنه، بعد أن عرفوا منابعه من أحد اليهود، فاضطر اليهود للخروج منه والقتال بـضراوة، ولكـنهم هزموا، ودخل المسلمون الحصن، وبهذا سقطت في يد المسلمين منطقة النطاة بأكملها.

وفتح المسلمون حصون منطقة الشق، بعد قتال مرير، وأخذوا منها السبايا / ومـنهن (صفية بنت حيي بن أخطب)، وكانت زوجة (كنانة بن أبي الحقيق)، ثم تزوجها رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلمت وأعتقها وصارت إحدى أمهات المؤمنين.

وزحف المسلمون إلى الشطر الثاني من خيبر ودخلوا حـصن (الـوطيح) وحـصن (السلالم)، فانهارت معنويات اليهود، ولما أيقنوا عدم جدوى القتال سألوا رسول الله صـلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ففعل. كذلك طلبوا منه أن يعاملهم في الأموال على النصف، وأن يسمح لهم بالبقاء في خيبر يزرعون أرضها إن أراد فوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم على ذلك، وكتب بينه وبينهم عهدا يقر لهم فيه هذه الأمور. وقد استشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلا، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا.

ولقد أخذت المستعمرات اليهودية الأخرى بما فعلت خيبر، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، الصلح على نفس شروط خيبر، وهي مستعمرات:

فدك، ووادي القرى، وتيماء فوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وكتب لهم كتبا أقر لهم مثلما أقر العهد مع يهود خيبر.

وبعد خيبر، وفي جمادى الأولى من العام الثامن من الهجرة، بعث رسول الله صـلى الله عليه وسلم سرية لقتال الروم، الذين لم يستجب مليكهم هرقل لدعوى رسول الله صـلى الله عليه وسلم في كتابه الذي أرسله إليه يدعوه فيه إلى الإسلام، ويطلب منه أن يعرض الإسـلام

على قومه وألا يكون عائقا بينهم وبين تفهم هذا الدين، ولكنه رفض الدعوة وساير كبار مستشاريه وقساوسته في معاداة الرسول صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم وبسبب هذا الموقف من صاحب السلطة والسلطان في بلاد الروم، أعلن الرسول الحرب على أكبر قوة عسكرية في عالم ذلك الوقت، دون خوف أو قلق من فارق القوى المادية بين الطرفين التي كانت لصالح الروم، لكن القوة الروحية كانت لصالح المسلمين.

وتكونت السرية التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثلاثة آلاف مقاتل، أرسلهم إلى بلدة (مؤتة) بمنطقة البلقاء من نواحي الشام، وهي بلاد الأردن الحالية، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة هذه السرية لثلاثة من كبار قواده، يتولى أحدهم القيادة بعد الآخر على التوالي، وهم: (زيد بن حارثة) و (جعفر بن أبي طالب)، و (عبد الله بن رواحة). وقد كانت هذه السرية أول توجه عسكري خارج شبه الجزيرة لمستعمر من مستعمرات الروم وحلفائهم من عرب الغساسنة النصارى.

وكان (هرقل) ملك الروم، حين علم بأمر هذه السرية الإسلامية، وعلم بعدد رجالها القليل، بعث بمائة ألف مقاتل من رجاله يقودهم أخوه (تيودور) لمساعدة الغساسنة في مواجهة هذا الغزو الإسلامي لبلادهم. وقد بدى من قلة عدد المحاربين المسلمين بالنسبة لعدد قوات الروم الكبير عدم تكافؤ اللقاء، لذا كان بالضرورة أن تنتهي الحرب بينهما لغير صالح المسلمين، خاصة أن المسلمين كانوا يقاتلون على أرض غريبة عنهم، وأن الرحلة من الحجاز إلى الشام قد استنفذت جهدا كبيرا منهم. ولكن برغم نتيجة هذه المعركة الغير موافقة لإرادة المسلمين إلا أنها كانت إنذارا خطيرا وجه لدولة الروم وإشعارا لهم بالخطر الداهم المرتقب القادم إليهم من عبر صحراء جزيرة العرب.

وقد استشهد في هذه المعركة القواد الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيادة الحلمة، فاصطلح الناس بينهم وبين أنفسهم على أن يتولى القيادة عليهم بعدهم (خالد بن الوليد)، الذي كان جنديا عاديا مرافقا للحملة. وكانت هذه الحملة فرصة سانحة لبروز نجم خالد في قيادة الجيوش الإسلامية، بعد أن نجح في تنظيم قواته المتبقية والقليلة العدد، وبهام العدو بتكتيك حربي رائع بأن أمدادا تجيئ إليهم من الحجاز، وانسحابه انسحابا مشرفا دون وقوع هزيمة ساحقة مؤكدة لجيش المسلمين. ولما عاد خالد بقواته سالمة إلى المدينة، جعل الناس يحثون عليه وعلى جنوده التراب ويدعونهم (بالفرار)، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم

نفى عنهم هذا الاتهام الباطل، وحيا مجهودهم، وقال عنهم (إنهم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى).

ولقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يواصلوا حربهم ضد الروم، وأن يثأروا منهم لهزيمتهم يوم مؤتة، فبعد فتح مكة بحوالي عشرة شهور، جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم، حملة كبيرة إلى بلاد الروم، وكانت وجهة تلك الحملة إلى بلدة (تبوك) التي تقع على بعد مائتين وخمسين ميلا من المدينة. وكانت هذه الغزوة آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقادها بنفسه، في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.
وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وأعلن لثاني مرة عن وجهته التي يريدها. ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصد من ذلك الإعلان أن يبين لأتباعه ممن يشاركون فيها أهمية هذه الغزوة وكثرة مشاقها وطول طريقها وخطر العدو الذي سوف يلقونه فيعدون للأمر عدته. وكان الوقت صيفا شديد الحرارة والبلاد في تلك السنة مصابة بجدب وقحط؛ ولذلك عرف هذا الجيش الذي أعده رسول الله صلى الله عليه وسلم (بجيش العسرة). وقد بلغ عدد المشاركين فيه حوالي ثلاثين ألف مقاتل. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الغنى والثراء من المسلمين أن يجهزوا للخروج من لا قدرة له على الجهاز للقتال. وقد أنفق الصحابي الجليل عثمان بن عفان ــ رضي عنه الله ــ نفقة عظيمة على هذا الجيش. وجاء أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم هي كل ماله. وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وحمل العباس بن عبد المطلب ما لا يقل عن تسعين ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا كثيرا. وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقا [1] من التمر. وساهمت النساء بكل ما قدرن عليه من حليهن فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأيديهن وأرجلهن من الحلي وما بآذانهن من الأقراط وما بأعناقهن من العقود والقلائد. وتنافس المسلمون في البذل حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما: " هذا البعير بينكما تعتقبانه "، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها لبعض من خرج. وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارون في تجهيز الجيش كل بحسب طاقته، فمن استطاع أن يجهز غير نفسه جهز بقدر ما يستطيع، ومن لم

(١) الوسق: ٥ أقفزة، والقفيز ١٢ صاع، والصاع أربعة أمداد، والوسق في الأصل ما يعادل حمل حمار.

يستطع جهز نفسه وكفاه ذلك. وقد تجلت في تجهيز هذه المعركة بالذات أخلاقيات الحرب السامية عند المسلمين الذين تطوع القادرون منهم بمعظم ما يملك لإعداد الجيش المقاتل، وتسابق الجميع من أجل ذلك حتى النساء المؤمنات لم يقصرن في الجهاد بما يملكن من حلي وقلائد. كذلك تسابق الجميع للمشاركة بالجهاد في هذه الغزوة رغم علمهم بصعوبة المسير فيها وصعوبة الطقس آنذاك وشدة مراس العدو، استهان الجميع بكل ذلك رغبة منهم في نصرة الإسلام وإعلاء راية لا إله إلا الله محمد رسول الله في الآفاق.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بطن من بطون الأمصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لهم لواء أو راية، ومضى لوجهه يسير بأصحابه ويقطع هذه المسافة الكبيرة حتى قدم تبوك في ثلاثين ألفا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة يصلي بها ركعتين. وكان هرقل ملك الروم يومئذ ببلدة حمص، ولم يظهر أحد من رجال جيشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم طوال إقامته بتبوك. وبعد انقضاء الليلة العشرين قفل صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة بعد أن حققت الغزوة الأهداف التي خرجت من أجلها. وقد كان ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه يقوده بنفسه متحديا قوة أكبر وأقوى دولة في عالم آنذاك رمزا حقيقيا لقوة دولة الإسلام في المدينة. وإنذارا خطيرا لملوك الروم بقرب زوال ملكهم على يد هذا الجنين الذي خرج من الجزيرة العربية بعد أن كبر ونمى وصارت له مخالب وأنياب تتحدى الشرك والإلحاد والوثنية وعبادة غير الله الواحد القهار.

وقد أدرك أمراء تلك الأنحاء، القريبة من تبوك، حقيقة هذه القوة فلم يتصدوا لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل جنحوا للسلم وطلبوا الصلح معه، فتصالح معهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١). وقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (يوحنا) صاحب إيلات وعقد معه اتفاقا على أن يدفع وأهل إمارته من النصارى الجزية، وقد قدرت بحوالي ثلاثمائة دينار كل عام. كذلك جاءه وفد من أهل (جرباء) بالأردن، ووفد من أهل (أذرح) (٢)، واتفقوا معه على دفع الجزية السنوية، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بذلك.

---

(١) الأنفال: ٦١
(٢) هي قرية صيد على البحر الأحمر.

وأثناء مقامه صلى الله عليه وسلم بتبوك أرسل خالدا بن الوليد، على رأس قوة قوامها أربعمائة وعشرين فارسا إلى (دومة الجندل) [1]، في شهر رجب سنة تسع للهجرة، وكان مليكها من قبيلة (كندة) يدعى (أكيدر)، وكان نصرانيا، وانتهت حملة خالد بالمصالحة مع رسول الله على أن يدفع أكيدر الجزية، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا أمنه فيه وأمن أهل قريته.

وبعد ذلك عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ولم يلق كيدا، وقدم المدينة في شهر رمضان سنة تسع للهجرة وقال: " الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجر وحسبة ". وفي شأن هذه الغزوة نزل قرآنا يصور مواقف بعض الناس من أمر الخروج فيها، وموقف بعض المنافقين الذين قال بعضهم لبعض: (لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ)، زهدا في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى فيهم قوله: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ـ ٨١ ـ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ـ ٨٢ـ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ـ ٨٣ـ} [2].

وقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من المسلمين وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وهم البكاءون، جاءوا إليه يطلبون منه أو يوفر لهم ما يركبونه للغزو، فقال لهم: " لا أجد ما أحملكم عليه "، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، وهم: سالم بن عمير، وهرمى ابن عمرو، وعلبه بن زيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن غنمة، وسلمة بن صخر، والعرباض بن سارية.

وهؤلاء السبعة نزل فيهم قوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ - ٩٢-} [3].

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فاعتذروا إليه فلم يعذرهم، وهم اثنان وثمانون رجلا. وتخلف عن الخروج عبد الله بن أبي، أبى ومن معه، كما تخلف نفر من المسلمين من

---

(1) دومة الجندل: حصن بين الشام والمدينة قرب جبل طي.
(2) التوبة: ٨١ ـ ٨٣.
(3) التوبة: ٩٢.

غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن ربيع، ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر الغفاري، ولكن أبا ذر لحق بعد ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك. ونزل قوله تعالى في هؤلاء النفر وأولئك: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ -٨٣- وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ -٨٤-} [١]، وقوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ -٩٢- إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ -٩٣-} [٢].

وبعد هذا النجاح الذي حققته حملة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك عاد إلى المدينة، بعد أن أظهر قوته للروم دون الدخول في معركة فاصلة، ولكنه بحملته هذه أوحى لمن سيحكم دولة الإسلام من بعده أن يتعهد بحرب الروم وغزو بلادهم، وهذا ما فعله الخلفاء الراشدون من بعده وخلفاء الأمويين. وحين قامت قوات الإسلام بفتح مستعمرات الروم وتحويل أهلها إلى الإسلام في مصر والشام وشمال أفريقيا، ادعى بعض كتاب الغرب والمستشرقون المتعصبون بأن المسلمين فتحوا هذه البلاد بحد السيف في وقت ضعفت فيه دولة الروم المسيحية ولم تستطع أن تحمي الشعوب الخاضعة لها في تلك المستعمرات من هذا التحول من المسيحية إلى الإسلام، وأن هذا التحول قد فرض عليهم والسيف فوق رقابهم. وهذا القول قول مردود على أصحابه ودعواه باطلة لأن كتب التاريخ جميعها قديمها وحديثها والتي تعرضت للفتح الإسلامي لتلك البلاد، سواء كتبها كتاب مسلمون أو غير مسلمين، لم تشر أبدا، ولو إشارة واحدة إلى أن الفاتحين المسلمين أجبروا شعبا من الشعوب التي فتحوا بلادها على اعتناق الإسلام وترك ما هم عليه من ملة ودين.

ولو قرأنا تفاصيل مجريات أحداث الفتوح الإسلامية، واستعرضنا جهاد المسلمين في هذه الفتوح التي بدأ بها رسول الله، فلا نجد فيها أي إكراه أو إجبار لمسيحي أو يهودي أو حتى مجوسي [٣] على ترك ملته للدخول في الإسلام. وكان السيف فقط على رقاب الملحدين

([١]) التوبة: ٨٣، ٨٤.
([٢]) التوبة: ٩٢، ٩٣.
([٣]) اعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المجوس أهل كتاب ولكنهم أضاعوا كتابهم وأخذ الجزية من مجوس البحرين وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع مجوس العراق عند فتح العراق.

والوثنيين الذين لم يتقبلوا دعوى الإسلام ولم يدخلوا في الدين. أما أهل الكتاب، والذين عرفوا لهم الإسلام حق الحياة وحرية العبادة وحرية العمل وحافظ على كنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ودور عبادتهم دون التعرض لها على أن يدفعوا الجزية [1] إسوة بالمسلمين الذين يدفعون الزكاة.

وبعد أن عرف هؤلاء الذميون سماحة الدين الجديد ومصداقيته وقوة حجته وصدق منطقه وأمانة مبله وعدالة شرعته، مع تبين بطلان معتقدهم وظلم حكامهم لهم، وتأليه هؤلاء الحكام لأنفسهم وهم بشر لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا؛ أقبلوا بسبب كل هذا على الإسلام، الدين الحق، ودخلوا فيه بأعداد كبيرة وفي وقت قصير. وقد شق على غلاة المسيحية وقادتهم وكبار رجال الكنيسة أن يتحول أهالي بلاد كانت قلبا للمسيحية ومعقلا لها، مثل بلاد مصر والشام، إلى الإسلام وأن تصبح هذه البلاد، بعد وقت قصير من الفتح الإسلامي لها، قلبا للإسلام ومعقلا له ومراكز كبرى له ومنارات عالية شامخة يشع منها نوره وهديه إلى سائر الآفاق. فقال هؤلاء كذبا وغيظا وحسدا ما زعموه أن الإسلام انتشر في تلك البلاد بحد السيف.

وإذا كان الأمر على ما يدعي هؤلاء، فلم لم نسمع أو نقرأ في كتب التاريخ عن تحول أهل هذه البلاد إلى المسيحية وحدوث حركة ردة بينهم طوال عهود التاريخ، حتى في الفترة التي شن فيها الغرب الأوربي حروبه الصليبية، لم نسمع أن أحدا من سكان تلك البلاد قام بمساعدة الصليبيين على تنصير بلده، بل قاموا بمقاومتهم وتمسكوا بإسلامهم رغم تعرضهم للمذابح التي قام بها أولئك الصليبيون ولم ينج من مغبتها حتى إخوانهم المسيحيين المخالفين لهم في المذاهب في تلك البلاد، ولم ينج منها حتى اليهود الساكنين في تلك البلاد، والذين كانوا يتمتعون برعاية وحماية المسلمين لهم أثناء حكمهم هناك منذ فتوحات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

[1] الجزية هي مبلغ من المال قدر على الذمي المقتدر بأربع دنانير في العام، والمتوسط تحل بدينارين، والفقير بدينار واحد، ولا يدفع هذه الجزية النساء ولا الأطفال ولا الرهبان ولا العاطلين عن العمل، وتسقط هذه الجزية بإسلام صاحبها. والجزية هي جزاء لبقاء الذمي على ديانته، أو جزاء لما تقدمه له دولة الإسلام من خدمات وتحفظ مثله من حقوق.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية يوم غزوة حنين:

ومن المعارك الهامة، التي حارب فيها صاحب السيرة العطرة، التي يجب أن نتوقـف عندها لبرهة ونستخلص منها أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية (غزوة حنين) ضد تحـالف قبيلتي هوازن وثقيف.

وكانت قبيلة هوازن من القبائل الكبرى في الحجاز وكذلك كانت ثقيف، التي سـكنت الطائف، وكانت هوازن، في الجاهلية، في عداء شديد وتنافس مرير مع قريش على الـسيادة على عرب الحجاز، هي وثقيف. وبعد أن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، كان عليه أن يواجه هاتين القبيلتين الكبيرتين، اللتين أرتأتا أن في خضوع قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم قد جاءتهما الفرصة لتحقيق تلك السيادة في الحجاز بعد أن خرجت منافستهما قريش من مضمار الصراع وحلبته منهزمة أمام محمد صلى الله عليه وسلم ورجاله، وأن على القبيلتـين تجهيز قواتهما لمهاجمة دولة الإسلام في عقر دارها والانتصار عليها.

وكان أشراف هوازن قد اجتمعوا، بعد فتح رسول الله صلى الله عليه وسـلم لمكـة، جمعهم (مالك بن عوف النضرى)، ومعهم أشراف بني نصر وجشم وسعد ابن بكر وناس من بني هلال. وكان في جشم (دريد بن الصمة)، وهو شيخ كبير مجرب وعالما بشئون الحـرب والقتال. وأجمع مالك النضرى بالسير بقواته ومع الناس نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم، وكان عدد الخارجين أربعة آلاف مقاتل، نزلوا أول الأمر عند (أوطاس)، وهو وادي بين مكة والمدينـة قرب (ذي المجاز).

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر هذا الجيش أرسل (عبد الله بـن أبـي حدرد الأسلمي) ليستطلع له الخبر، ففعل الأسلمي ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأخبره بصحة تحرك هذا الجيش. فقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلـى هـوازن ليلقاهم قبل وصولهم المدينة؛ فخرج يوم السادس من شهر شوال سنة ثمان للهجرة في اثنـي عشر ألف مقاتل، ألفان من أهل مكة مع العشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهـم مكـة. وعندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة من معه من جنود قال له أحد الصحابة: " لن نغلب اليوم عن قلة ".

والتقت قوات المسلمين مع قوات عددهم يوم العاشر من شهر شوال عنـد وادي مـن أودية تهامة يعرف (بوادي حنين). وكانت هوازن قد سبقت قوات المـسلمين إلـى الـوادي

وعملت هنالك كمائن لجيش المسلمين فيه، وما أن وصلت قوات المسلمين إلى هنـــاك حتـــى باغتهم العدو رميا بسهام غزيرة، ففوجئ المسلمون بذلك دون أن يعدوا للأمـــر عدتـــه ولـــم يتوقعوا أن يكون اللقاء كذلك، فوقع الذعر في صفوف المسلمين وهرب كثير منهم في أنحـــاء الوادي لا يلوون على شيء.

وذكر ابن إسحق وصفا لما وقع للمسلمين أول الأمر في غزوة حنين بقوه عن جـــابر بن عبد الله: " لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف حطوط إنمـــا ننحدر فيه انحدارا. وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد. وأنحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، ثم قال: " أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله لا كذب أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ". وانطلق الناس، إلا أنه بقي مع رسول الله صـــلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وفيمن ثبت من المهاجرين: أبـــو بكـــر وعمر، ومن أهل بيته: علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بـــن حـــرب وابنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد.

فلما انهزم الناس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس، وكـــان جهـــوري الصوت، أن ينادي في الناس أن يثبتوا، فناداهم؛ فاجتمعوا وعادوا لرشدهم، وعاودوا القتـــال مستبسلين فيه حتى حولوا الهزيمة إلى نصر، وأعملوا القتل في الأعداء. وقد أخذ رســـول الله صلى الله عليه وسلم ف كفه حفنة من تراب وضرب به وجوههم، وقال: " شاهت الوجـــوه " فهزمهم الله.

وذكر ابن إسحق أنه كان من ضمن المقاتلين الذين ثبتوا حول رسول الله صـــلى الله عليه وسلم (أم سليم بنت ملحان) وتدعى (مليكة)، وقد التفت رسول الله صلى الله عليه وســـلم فرأى أم سليم، وكان معها زوجها أبو طلحة، وهي حازمة وسطها ببرد لها، وإنها لحامل (بعبد الله بن أبي طلحة) ومعها جمل أبي طلحة، فقال لها رسول الله: " أم سليم ؟ "، قالـــت: " نعـــم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقتل هؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أو يكفي الله يا أم سليم "، وكان مع أم سليم خنجر، فقال لها أبو طلحة: " ما هذا الخنجر معك يـــا أم ســـليم ؟ " قالت: " خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به ".

فلما حمى وطيس القتال وانهزمت هوازن توقفت عن القتال، وأعلن رجالها الاستسلام، لكن ثقيفا استمرت تقاتل حتى قتل سبعون من رجالها، ولما أدركوا وقوع الهزيمة لا محالة بهم هرب من نجى من القتل تاركين وراءهم نساءهم وزراريهم وأموالهم غنيمة للمسلمين. وهكذا استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشجاعته وحسن قيادته وضربه المثل في الثبات والتضحية والفداء وعدم مهابة الموت والوثوق في نصر الله له، أن يحول هزيمة جيشه إلى نصر محقق، وأن يحصل في هذه الغزوة من الأعداء على الكثير من الغنائم والأسلاب. ولقد أحصيت الغنائم يومئذ فبلغت اثنين وعشرين ألفا من رؤوس الإبل، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما عدد الأسرى الذين وقعوا في يد المسلمين من رجال هوازن ورجال ثقيف فقد كان عددا كبيرا جاوز الستة آلاف أسير.

وتعقبت قوات المسلمين فلول هوازن حتى بلغوا (أوطاس)، وهنالك هزموهم شر هزيمة وسبوا من احتملوا من نساء وغنموا ما استطاعوا من أموال وعادوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حضرت الملائكة هذه المعركة وقاتلت إلى جانب صف المسلمين، وذلك مصداقا لقوله تعالى لما نزل من آيات بينات بخصوص تلك الغزوة من سورة التوبة [1]: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ -٢٥- ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ -٢٦-}.

ولقد بين الله تعالى لمن قال في هذه المعركة " لن نغلب اليوم عن قلة " أن النصر إنما هو من عند الله وأنه من ينصره فلا غالب له ومن يخزله فلا ناصر له غيره، وأن الله تعالى هو الذي تولى نصر رسول الله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم فإنها لم تغن عنكم شيئا فوليتم مدبرين، فلما وقعت الهزيمة أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم يروها وحول هزيمتهم إلى نصر.

(1) التوبة ٢٥، ٢٦.

وقد قتل (دريد بن الصمة) في هذه المعركة، قتله ابن الدغنة (ربيعة بن رفيع من ثعلبة). وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حروبه ومعاركه عن قتل وليد، أو امرأة، أو أجير. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه يومئذ: " إن قدرتم على بجاد فلا يفلتنكم "، وبجاد رجل من بني سعد بن بكر، وكان قد أحدث حدثا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معهم (الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى)، أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، فعنفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: " تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة "، تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما انتهى بها إليه قالت: " يا رسول الله إني أختك من الرضاعة " قال لها: " وما علامة ذلك ؟ " قالت: " عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك "، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وخيرها بين أن تبقى معه معززة مكرمة وإما أن يعطيها ما يمتعها وترجع إلى قومها؛ فاختارت الأمر الثاني فمتعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما له يقال له (مكحول) وجارية، فزوجت الجارية للغلام، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

وبعد المعركة جمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حنين وأموالها، فأمر بهما إلى (الجعرانة) فحبست بها. وبعد ذلك توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مدينة (الطائف) بقواته لمنازلة قبيلة ثقيف ومعاقبتها على اشتراكها مع هوازن يوم حنين، وتقدم إلى الطائف بقواته، وهو يشعر بقوة الإيمان وحلاوة النصر وفضل الله عليه فيه. وقد تذكر، وهو في طريقه إلى الطائف، تذكر تلك الأيام القاسية التي عاش فيها في عام الحزن يوم توجه إليها لينصره أهلها على قريش وقد توسم فيهم خيرا، فلاقوه شر لقاء وطردوه من بلدتهم شر طرده، وسلطوا عليه غلمانهم وصبيانهم وعبيدهم يقذفونه بالأحجار حتى أدمت الأحجار قدميه الشريفتين. تراءت هذه الصور وتتابعت في ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وشكره لما عوضه عن تلك المهانة التي لحقت به في الطائف في السابق، بقدومه إليها فاتحا قويا معززا بجيشه ومؤيدا بنصر الله. وها هي الطائف اليوم يقف أهلوها خائفين مذعورين كذلك من هرب إليها من منهزمي هوازن، الجميع يرتجف بعد حصار رسول الله صلى الله

عليه وسلم للمدينة، وقد أدركوا بأن الموت هو مصير كل من يجرؤ على المواجهة ويتحدى باللقاء.

ولقد ظل أهل الطائف مختبئين وراء أسوار مدينتهم وحصونهم التي حاصرتها الجيوش الإسلامية مدة سبع عشرة ليلة، لم يجرؤوا خلالها على الخروج والمواجهة وخاصة حين رمتهم قوات المسلمين (بالمنجنيق) (١)، الذي أنزل عليهم حمم النيران بشكل كثيف. واختبأ أهل الطائف في مساكنهم كما تختبئ الجرذان في جحورها، واعتمدوا في صمودهم على ما خزنوه في صوامعها ومخازنها من غلال وأقوات. وبعد أن أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم جدوى الحصار، أمر برفعه عن الطائف والعودة إلى المدينة. وقد دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثقيف بقوله: " اللهم أهد ثقيفا وأت بهم ".

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قواته إلى منطقة (الجعرانة)، حيث كان قد ترك بها أسرى وأسلاب هوازن التي غنمها المسلمون يوم حنين، وقام بتوزيع هذه الغنيمة على المقاتلين، بعد احتجاز الخمس منها لمستحقيه، وقد بتوزيع هذه الغنيمة على المقاتلين، بعد احتجاز الخمس منها لمستحقيه، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنيمة، هذه المرة، للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما واحدا، وقد جاءت الزيادة في هذه القسمة عن قسمة غنيمة بدر، بسبب كثرة غنائم حنين، وكان قد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر للفارس سهمين وللراجل سهم واحد.

وقبل أن يغادر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجعرانة، عائدا إلى المدينة، جاءت رسل هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب منه أن يرد إليهم أسلابهم ونساءهم مقابل دخولهم في طاعته وأن يدينوا بالولاء له، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرهم بين الأسلاب والنساء فاختاروا النساء، فسلمهن لهم بعد أن أخذ منهم عهدا بالولاء والطاعة لحكومة المسلمين. هذه هي صفات النبي العربي العظيم وأخلاقيات الحرب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: العفو عند المقدرة، والعرفان بالجميل، وصلة الأرحام، والرحمة بالنساء والأطفال، وقد تجلت هذه الصفات في شخصه الكريم يوم حنين وضرب صلى الله عليه وسلم بها أروع الأمثال.

---

(١) مدافع ذلك العصر.

وبعد عام من رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حصاره عن الطائف، جاءه وفـدها يبايعونه ويعلنون له دخولهم في الإسلام بعد أن تأكدوا أن لا طاقة لهم بحرب دولة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن فك حصاره عن الطائف، شجع بني هوازن، الذين صاروا أحلافا له بعد دخولهم الإسلام، على مهاجمة تجارة الطـائف مع مكة، وكانت هذه التجارة تمثل عماد اقتصاد بني ثقيف بالطائف، لذلك استسلم الثقفيون، ولم يريدوا أن يصبحوا بمعزل عن دولة الإسلام القوية داخل شبه الجزيرة، فكتبوا كتابا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنون فيه الولاء والتبعية له، وقد استجاب الله تعالى لدعوة رسـوله حين جلى عن أسوار الطائف بالهداية لثقيف، وجاء وفدها المدينة يبايع رسول الله صـلى الله عليه وسلم في عام الوفود.

ولما تم فتح مكة دخلت المنطقة الواسعة من جزيرة العرب المعروفة باسم (اليمامـة) في الإسلام دون حرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد اتصل بعض رؤسـاء (بنـي حنيفة) الحاكمين في اليمامة بالرسول وأعلنوا له الدخول في الإسلام، بعـد أن كـانوا علـى النصرانية، على أن يبقوا في مناصبهم في قبيلتهم. وقد وافقهم الرسول على ذلك، وكان هؤلاء الرؤساء قد اتخذوا لأنفسه لقب الملوك، ولكن حدث في أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل وفاته بعام، ظهر في بني حنيفة رجل يدعى مسيلمة، ادعى النبوة ونعته رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالكذاب)، وقد تحالف مسيلمة مع مدعية أخرى بالنبوة ظهرت في بنـي تميم وتدعى (سجاح التميمية). لكن محاولات هؤلاء المتنبئين وغيرهم ممن ارتد عن الإسلام في خلافة الصديق أبي بكر، قُضي عليهم تماما في الحروب التي عرفت في عهـد الـصديق باسم حروب الردة.

وإلى الشمال الشرقي لدولة فارس، كانت تعيش قبيلتان عربيتان كبيرتان فـي شـبه الجزيرة، وهما قبيلتي: " بكر بن وائل "، و" تغلب "، وكانتا كليهما على دين النصرانية علـى المذهب (اليعقوبي)، وكانتا على خلاف مع دولة فارس، فلما ظهرت دعـوى الإسـلام فـي الحجاز، توثقت علاقة هاتين القبيلتين مع دولة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يـشترط عليهما ضرورة الدخول في الإسلام، ودون شن حرب عليهما. لكن هاتين القبيلتين دخلتا فـي الإسلام طوعا، ونجحت في عهد خلافة الصديق أبي بكر والفاروق عمر أن تكونـا أول مـن هاجم دولة فارس باسم الإسلام، وأول من أرسى قواعد الإسلام بين الفرس زمن الفتوح.

وهكذا بعد أن افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودانت له قريش بالطاعة، وبعد أن عاد منتصرا من غزوة تبوك، وقد أظهر لبوادي العرب وتوابع الروم، قوة دولة الإسلام، وبعد أن أسلمت هوازن وثقيف وبايعنا وفتحت الطائف وأزعنت لدولة الإسلام، عرفت قبائل العرب أن لا طاقة لها على حرب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأدركت ضرورة الولاء لدولة الإسلام، لذلك ضربت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفود قبائل العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة في العام التاسع للهجرة، وجاءت تبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلن دخولها في الإسلام، حتى عرف هذا العام بعام الوفود. وقد نزل في ذلك قوله تعالى في سورة النصر: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ -١- وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا -٢- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا -٣-} [١]. ولما نزلت هذه الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم خر ساجدا وقال: " سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم ".

ولتلخيص أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، بعد أن أثبتنا بالدليل القاطع أن هذه الحرب لم تكن حربا هجومية، وكانت في معظمها حربا دفاعية، دفاعا عن العقيدة، وعن العرض والشرف، وعم حرية الاعتقاد، وفي مواجهة الطغيان والإرهاب، ودفعا للعدوان، وردًا لهجوم الأعداء، وحربا على الشرك والوثنية وعبادة غير الله الواحد القهار. وقد ارتبطت هذه الحرب في السيرة النبوية بفريضة الجهاد التي فرضها الله على المسلمين، في العام الثاني للهجرة بعد أن هاجروا إلى المدينة المنورة وتأسست هنالك دولتهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إخوتهم الأنصار، وقد أمر الله تعالى، كما سبق أن بينا، المسلمين في كثير من آياته بهذا الجهاد، كذلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أحاديثه، التزاما بهذا الأمر، إلى حتمية الجهاد على المسلمين؛ فمن أحاديثه قوله صلى الله عليه وسلم: " آمركم بخمس أمرني الله تعالى بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة " [٢]. وقوله صلى الله عليه وسلم: " جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم " [٣]. وقوله عليه الصلاة والسلام: " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها " [٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: " سمعت

---

(١) النصر: ١ - ٣.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه وصححه وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم.
(٣) رواه أحمد واللفظ له، ورواته ثقات، والطبراني في " الكبير " و " الأوسط "، والحاكم، وصحح إسناده.
(٤) رواه سهل بن سعد رضي الله عنهما.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله " [١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من رمى بسهم في سبيل الله كان له نورا يوم القيامة " [٢]. وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي الأعمال أفضل ؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله " [٣]. وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: " إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف " [٤]، وقد قال عليه الصلاة والسلام: " ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين أو أثرين، قطرة دمعة من خشية الله، وقطرة دم تراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله " [٥]، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: " ما من عبد يموت، له عند الله خير لا يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة " [٦]. وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه قال لأم حارثة بنت النعمان، وقد قتل ابنها معه يوم بدر، فسألته أين هو ؟ قال: إنه في الفردوس الأعلى " [٧]. كذلك صح عن الرسول ص قوله: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله".

ومن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، أن رسول الله ص كان يستحب القتال أول النهار، كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإن لم يقاتل أول النهار، كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإن لم يقاتل أول النهار، أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح وينزل النصر.

وكان عليه الصلاة والسلام يبايع أصحابه على ألا يفروا من القتال في مواجهتهم للعدو، وكان يبايعهم على الجهاد ويبايعهم على الموت في سبيل الله وطلب الاستشهاد، وبعد الشهداء منهم بالجنة. وقد قال يوم بدر للمقاتلين معه يحرضهم على قتال الكفار: " والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة "،

---

(١) رواه الترمذي في سننه.
(٢) رواه البزار بإسناد حسن
(٣) رواه البخاري ومسلم
(٤) أورده ابن قيم الجوزية في زاد المعاد في هدى خير العباد.
(٥) رواه الترمذي في سننه.
(٦) أورده ابن قيم الجوزية.
(٧) أورده ابن قيم الجوزية.

فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: " بخ بخ [1]، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء "، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وقال ابن إسحق: " وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، قال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده ؟ [2]، قال: غمسه يده في العدو حاسرا، فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل". وكان عليه الصلاة والسلام يشاور أصحابه في أمر الخروج للحرب وملاقاة العدو، وتخير المنازل والمواقع للقتال. وفي (المستدرك) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: " ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

وفي أمر المشورة للخروج للحرب رأينا ذلك في استشاراته الناس للخروج يوم بدر، وخاصة الأنصار، حين اجتمع بالمهاجرين والأنصار، وقال لهم: " أشيروا علي أيها الناس "، فوافقه المهاجرون والأنصار على الخروج واستعدادهم لبذل أرواحهم فداء ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقاتلة قريش وإعلاء كلمة راية لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذلك استشارته للناس يوم أحد، ونزوله على رغبة شباب المقاتلين في الخروج للعدو من المدينة حتى لا يتهم المسلمون بالجبن والخوف من العدو.

وبصدد تخيره صلى الله عليه وسلم للمنازل والمواقع للقتال، تخيره للموقع الذي أشار به عليه (الحباب بن المنذر) عند أدنى ماء من القوم حيث نزلوا ببدر وتغوير باقي الآبار وبناء حوض على البئر. كذلك تخيره لموقع رجاله يوم أحد عند تل مشرف هناك يقال له (جبل عينين)، وهناك صف أصحابه وأعدهم للقتال جاعلا ظهورهم إلى جبل أحد يحميهم وجعل على جبل عينين خمسين من المرأة لحمايتهم. كذلك موافقته (لسلمان الفارسي) يوم الأحزاب بحفر الخندق أما المدينة دفاعا لها من هجوم قوات الأحزاب عندما هاجموا المدينة بأعدادهم الكبيرة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في ساقة جيشه في المسير، وفيشد من أزر الضعيف منهم، ويردف المنقطع، وكان أرفق الناس بهم في المسير. وكان يتناوب مع أقرانه في الركوب وكان يمشي نوبته وإذا طلبوا منه الركوب

---
(1) كلمة تقال في حالة الإعجاب.
(2) أن يرضيه غاية الرضا مع تبشير وإظهار كرامة.

يقول لهم: " لا تحرموني من أن تغبر قدماي في سبيل الله ". وكان عليه الصلاة والسلام يشارك أصحابه في أعمال الإعداد للحرب، مثال ذلك، ما قام به يوم الخندق من مساعدتهم في حفر الخندق بيديه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة لا يفصح عن هدفها واتجاهها وكان يوري بمكان غير مكانها واتجاه غير اتجاهها، فيقول على سبيل المثال إذا أراد غزوة حنين: كيف طريق نجد ومياهها ومن بها من العدو، ونحو ذلك، وكان يقول " الحرب خدعة ". وقد نجحت هذه المقولة معه صلى الله عليه وسلم في كل سراياه وغزواته، ولم يفصح عن اتجاهه سوى في غزوته لخيبر وغزوته لتبوك. وكان إعلانه لغزوة خيبر بعد قضائه على بني قريظة، وإعلانا لمن بخيبر من اليهود أن مصيرهم هو مصير أقرانهم من بني قريظة إذا هم لم يتدبروا أمرهم ويفكرون في المصالحة. كذلك فإن إعلانه عن غزوة تبوك لبعد المسافة في هذه الغزوة، ولحث القادرين من المسلمين على المساهمة في تجهيز هذه الغزوة في الوقت الذي كانت تعاني فيه المدينة من الجدب والقحط.

كذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافق (نعيم بن مسعود) على استعمال الخدعة في الحرب في التفريق بين قريش وغطفان ويهود بني قريظة يوم الأحزاب، وقد نجحت خدعة مسعود في تفرقة صف الأعداء ومنع تجميعهم في صف واحد في هجومهم على المدينة وهزيمتهم يوم الخندق.

وكان عليه الصلاة والسلام، من أخلاقيات الحرب في سيرته العطرة، أن يبعث العيون يأتونه بخبر العدو، وقد فعل ذلك عليه السلام قبل غزوة بدر، وفي سراياه، وعند الحديبية، وعند فتح مكة، وكان يأخذ للأمر عدته بناء على ما يصله من تقارير أولئك المبعوثين. ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها ولا مندوحة له عنها ولكنه كان مع هذا نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة وهو يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدراسة والمران ويصيب في اختيار وقته وتسير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجساد وقد كانت غزوة بدر هي أولى تجارب

النبي صلى الله عليه وسلم في إدارة المعارك الكبيرة، وقد وعى من هذه التجربة ما قل أن يعيه القادة المحترفون للحرب من تجارب عديدة.

وكانت فراسة النبي في الاستدلال بمجريات الحرب وتوقع نتائجها، في ذلك مضرب الأمثال وقد ظهرت بداية هذه الفراسة العسكرية يوم بدر يوم رأى أصحابه يضربون الرجلين المبعوثين من قريش لسقياهم الماء من بدر لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفراسته الحادة أن الرجلين لا يكذبان إنما يقولان الحق. وحين سألهما عن عدد القوم وذكرا بأنهما لا يعرفان العدو، ولكنه صلى الله عليه وسلم عرف عدد قوات قريش حين علم بعدد الجمال الصغيرة التي يذبحونها كل يوم وهي بين تسعة وعشرة فعرف عدد قوات قريش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاجونه إليها، فقدر عددهم بألف مقاتل لكل مائه منهم (جزور) واحد كل يوم. ويشتد وطيسها وكان فارس الفرسان علي بن أبي طالب يشيد بشجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهد له بتقدم الصفوف في الحرب غير هياب ولا خائف ويقول: " كنا إذا حمى البأس إتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو ". وقد تجلى ثباته وتجلت بسالته وشجاعته يوم حنين يوم أن أصابت الفوضى والذعر جيشه في بداية المعركة بمهاجمة الكامنين لهم من العدو ووفق كالطود العظيم يقول: هلم إلى أيها الناس أنا النبي لا كذب أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " وما أن يرى الهاربون من القتال ذلك حتى يعودوا إلى المعركة بعد أن ضرب لهم القائد العظيم الجريء المثل في الصمود والثبات وتحدي لقاء العدو حتى لو حاربه منفردا.

كذلك تجلت شجاعة القائد في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيها من دروس في أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية وذلك حين خرج في ظلمات الليل ليطوف بالمدينة مستطلعا يوم الخندق وقد حاصرها العدو وهددها بالغارة وقد آثر أن يفعل ذلك بنفسه دون غيره وكان هنالك من يستطيع القيام بهذه المهمة الخطرة وهو آمن في داره ولكنها النفس البشرية الباسلة التي جعلت صاحبها يرى بنفسه ما يدور حوله ولم يعهد بهذا الواجب الخطر لأحد غيره.

كذلك شارك رسول الله في القتال بنفسه وبسيفه في كل الغزوات مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهي شجاعة قائد لا تؤثر أن تتوارى حيث يسمح لها بالتواري، وعندها العذر المقبول. وكان إذا لقي العدو وقف

ودعا واستنصر الله وأكثر وهو وأصحابه من ذكر الله وخفضوا أصواتهم. وكان يرتب الجيش والمقاتلة ويجعل في كل جنب منه من هو كفؤ له. وكان يعبئ ويرتب الصفوف بيده عند القتال وكان يلبس للحرب عدته (لأمته) وكان إذا لقي العدو، قال: " اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم " وكان يقول أيضا: " اللهم انزل نصرك " وربما قال: " سيهزم الجمع ويولون الدبر " وكان يلقى في وجوه العدو حفنة من تراب يملأ بها قبضة يده ويقول: " شاهت الوجوه ".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخيلاء في الحرب اختيال الرجل بنفسه عند لقائه العدو وقد أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في غزوة أحد حين عرض سيفه على من يأخذ بحقه وأعطاه لأبي دجانة وقام أبو دجانة وقد أخذ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي به مختالا متبخترا وقال قولته الشهيرة: " إنها لمشية يكرهها الله تعالى إلا في هذا الموقف ".

وكانت أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية نهيه صلى الله عليه وسلم في الحرب من قتل النساء والولدان وقد امتثل جنوده لأمره ولم يثبت قط أن المسلمين قتلوا في غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سراياه امرأة أو طفلا وكان إذا بعث يوصيهم بتقوى الله والالتزام بأخلاقيات الحرب الشريفة ويقول لهم: " سيروا بسم الله وفي سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ". كما نهى صلى الله عليه وسلم عن النهبة وقال عليه الصلاة والسلام: " من انتهب نهبة فليس منا ".

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر أمير كل سرية يرسلها أن يدعو عدوه قبل القتال إلى الإسلام، أو بذل الجزية، فإن هم استجابوا له قبل منهم وإلا استعان بالله وقاتلهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ظفر بعدوه أمر مناديا ينادي في الناس فيجمع الغنائم كلها ويبدأ بالأسلاب فيعطيها لأهلها ثم يخرج خمس الباقي ويجعله لمستحقي الفيء تطبيقا لما ورد في سورة الحشر من قوله تعالى: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} [1]، ثم يعطي من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ثم يقسم الباقي بالتساوي بين الجنود المقاتلين

---

[1] الحشر: ٧ (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي سهم ذي القربى في بني هاشم وبني عبد المطلب دون إخوتهم من بني عبد شمس وبني نوفل وقال: " إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد " وشبك بين أصابعه وقال: " إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ".

للفارس سهم له ولفرسه سهم، كما فعل يوم بدر، وللمشاة سهم، كما فعل يوم بــدر، وللفــارس سهمان ولفرسه سهم كما فعل يومي خيبر وحنين وقد جاء حكم الغنيمة وإخراج الفيء منه في قوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربــى واليتــامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير} [1]. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفل من الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة، وكان يسوي الضعيف والقوي في القسمة، وما عدا النفل.

وكان لرسول الله سهم من الغنيمة يعرف (بالصفي)، شيء يصطفيه لنفسه من الغنيمة يختاره قبل الخمس وهو إما يكون عبدا أو أمة أو فرسا أو سيفا. وكانت صفية بنت حيي بن أخطب، صفيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، كما كان سيفه (ذو الفقار) صفيا يوم بــدر وهو سيف وهب بن منه الذي قتل في المعركة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يــسهم لمن غاب عن الموقعة أو الغزوة لعمل يقوم به لمصلحة المسلمين فقد أسهم لعثمان بن عفــان رضي الله عنه سهمه يوم بدر الذي لم يحضره وكان متغيبا لمكان تمريضه امرأته (رقية) إبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت تحتضر، فقال رسول الله صلى الله عليــه وســلم لأصحابه في هذا الخصوص: " إن عثمان انطلق في حاجة الله وحاجة رسوله صلى الله عليه وسلم ". فحفظ له سهمه وأجره.

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية في أمر الأسرى:

كان أول وقوع لأسرى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر إذ قتل سبعون من رجال قريش في هذه الغزوة وأسر سبعون آخرون وفي المدينة اجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مغادرته بدرا مع صحابته للنظر في أمر اسارى قريش ولم يكن له سابقة فــي أمر الأسرى من قبل. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أمر الوحي له فــي الأمــرو الخطيرة فيقوم بتنفيذ ما ينززل به جبريل عليه السلام من أمر بخصوصه ويحسم ذلك الأمــر وفي حالة تأخر نزول الوحي عليه أو عدمه في مسألة ما من تلك المسائل فكان ذلك يعني أن الله تعالى قد فوض نبيه في التصرف في ذلك الأمر برأيه واستشارة كبار صحابته فيه. ولــم يكن رسول اله صلى الله عليه وسلم عندئذ يستبد برأيه في تنفيذ حكم الشرع في ذلك الأمر بل كان يستشير كبار صحابته فيه. وفي أمر الأسرى انتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم نزول

---

[1]) الأنفال: ٤١

وحي عليه بصددهم فلما لم ينزل استشار كبار صحابته في كيفية التصرف معهم وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " لما كان يوم بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟" فقال أبو بكر: " يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم "، وقال: عمر: " يا رسول الله أخرجوك وكذبوك اضرب أعناقهم ". وقال عبد الله بن رواحة: " يا رسول الله أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا ". فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا فقال ناس: يأخذ بقول أبو بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة فخرج عليهم فقال: " إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. أنتم عالة، فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق ".

ولقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي بي بكر بقبول الفداء عن الأسرى، وعاتب الله رسوله علي أن قبل الفداء وأثره على الاثخان في قتل العدو، فنزل قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[1]. على أن الله تعالى تجاوز لرسوله عن هذا الاجتهاد وأحل له وللمسلمين ما أخذوا من الغنيمة، فقال سبحانه: **﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[2].

وقد تكلم الناس في أي الرأيين، رأي أبي بكر أو رأي عمر أيهما، كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر، ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أولا، ولموافقة الله له أخرا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأي ما يستقر عليه حكم الله أخرا، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

---

(1) الأنفال: ٦٧، ٦٨.
(2) الأنفال: ٦٩.

واستأذن الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، فقال: "لا تدعوا منه درهما". وقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فقراء الأسرى فأطلقهم بغير فداء، وجعل فداء بعضهم ممن يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، أما أغنياؤهم فأبقاهم حتى يفتديهم أهلوهم، وكان فداء الواحد منهم يتراوح ما بين ألف وأربعة آلاف درهم، بحسب درجة ثرائه. وكان ممن من عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإطلاق، دون فداء، (عمر ابن عبد الله الجمحي)، وكان محتاجا ذا بنات، وأخذ عليه عهدا ألا يظاهر المشركين عليه.

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته الكبرى (زينب)، وقد أطلق سراحه كرامة لإبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي أدى إلى دخوله في الإسلام. ولم يقتل من الأسرى سوى اثنان هما: (عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة) لشدة عداوتهما لرسول الله وللمسلمين.

هذا وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، وقال: "من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة".

كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعتاق عبيد المشركين إذا خرجوا إلى المسلمين وأسلموا وقال عنهم: "هم عتقاء الله عز وجل". كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتفظ من أسلم على شيء في يده، فهو له، ولم ينظر إلى سببه قبل الإسلام، بل يقره في يده كما كان قبل الإسلام. ولما فتح مكة، قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم التي استولى عليها المشركون، فلم يرد على واحد منهم داره، وذلك لأنهم تركوها مهاجرين لله وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته، فأعاضته، فأعاضهم الله عنها دورا خيرا منها في الجنة، فليس لهم أن يرجعوا فيما تركوه لله. بل أبلغ من ذلك أنه لم يرخص للمهجر أن يقيم بمكة بعد أداء نسكه، أكثر من ثلاث، لأنه قد ترك بلده لله، وهاجر منه، فليس له أن يعود يستوطنه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمن على بعض الأسارى بالإطلاق، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وقد فعل كل ذلك بحسب المصلحة العامة، ففادى أسارى بدر، كما رأينا، بمال. وقد هاجمه ثمانون رجلا مسلحا من قريش يوم الحديبية، فأسرهم، ثم من عليهم وأطلقهم. كذلك أسر عليه الصلاة والسلامة (ثمامة بن أثال)، سيد بني حنيفة، فربطه بسارية

المسجد، ثم أطلق سراحه، فأسلم. ورد سبي هوزان عليهم بعد القسمة، واستطاب قلوب الغانمين لهم فطيبوا له وعوض من لم يطيب ذلك منهم.

وكان عليه الصلاة والسلام يسترق سبي العرب، كما يسترق غيرهم من أهل الكتاب، وكان عند عائشة رضي الله عنها سبية منهم، فقال لها: "إعتقيها فإنها من ولد إسماعيل". ولما قسم عليه الصلاة والسلام سبايا (بني المصطلق) وقعت (جويرية بنت الحارث) في السبي لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها، فأعتق، بتزوجه منها، مائة من أهل بيت بني المصطلق إكراما لمصاهرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجويرية من صريح العرب.

وكان عليه الصلاة والسلام يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، وقد قال في ذلك: "من فرق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة". وكانت تلك رحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمهات وأولادهن الصغار، حتى ولو كانوا على الكفر. وقد كان يؤتى بالسبي جميعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعطي الجميع دون تفرقة ولا محاباة كراهية أن يفرق بينهم.

وثبت عن رسول الله رضي الله عنه أنه قتل جاسوسا من المشركين تجسس على جيشه في الحرب ووقع في يد المسلمين قبل أن يهرب. كذلك ثبت عنه أنه لم يقتل الجاسوس المسلم مثلما فعل مع (حاطب)[1] وكان قد جس عليه واستأذنه عمر في قتله فلم يأذن له.

وبخصوص الأرض المغنومة، أي الأرض التي قاتل عليها المسلمون أصحابها من أهل الشرك وهزموهم عنها واستولوا عليها عنوة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها أرض خراج، وهي بخلاف الأرض التي أسلم عليها أهلها دون أن يقاتلوا المسلمين، أو صولحوا عليها، وهي التي عرفت بالأرض العشرية فأرض الخراج يؤخذ منها لنصف مما تغله نقدا أو غلة بحسب ما يقتضى الأمر، أما الأرض العشرية فيدفع عنها أصحابها العشر زكاة مما تغله هذه الأرض. وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قسم أرض بني قريظة وبني النضير وخيبر بين الغانمين، وأما المدينة ففتحت بالقرآن وأسلم عليها أهلا فأقرت بحالها، وأما مكة ففتحها عنوة ولم يقسمها، فأشكل على كل طائفة من العلماء الجمع بين فتحها عنوة ترك قسمتها. فقالت طائفة: لأنها دار المناسك، وهي وقف على المسلمين كلهم وهم فيها سواء فلا

---

(١)هو حاطب بن أبي بلتعه، وقد بعث بخبر أهل مكة بخبر غزو رسول الله لمكة.

يمكن قسمتها. ومن الأدلة على أن مكة فتحت عنوة، أنه لم يقل أحد قط أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهلها زمن الفتح، ولا جاءه أحد منهم صالحه على البلد، وإنما جاءه أبو سفيان يطلب الأمان لنفسه ويعلن إسلامه، فأعطاه الأمان له ولمن دخل داره، أو أغلق عليه بابه أو دخل المسجد الحرام، واستجار به، أو ألقى سلاحه. فلو كانت مكة فتحت صلحا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دخل داره أو أغلق بابه أو دخل المسجد فهو آمن"، فإن الصلح أنذاك يقتضي الأمان العام.

كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله حبس عن مكة الفيل (فيل أبرهة النجاشي)، وإنه أذن لي فيها ساعة من نهار"، وفي رواية أخرى: "إنها لا تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أُن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس"، وهذا قول صريح في أنها فتحت عنوة.

وفي السنن بإسناد صحيح: "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يوم فتح مكة، قال: "أمينوا الناس إلا امرأتين وأربعة نفرذ اقتلوهم وإن وجدتموهم معلقين بأستار الكعبة"، ومن هؤلاء الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم: (مقيس ابن صبابة) و(ابن خطل)، وجاريتينلشدة إيذائهما للمسلمين، ولو كانت مكة فتحت صلحا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل أحد من أهلها، ولكان ذكر هؤلاء مستثنى من عقد الصلح.

وقد تجلت عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقيات الحرب النبيلة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح العظيم لمكة، فلم يشأ أن ينتقم من أهلها مما قاساه منهم خلال دعوته وأيام بعثته. لقد أنساه حلمه وكرمه وعلو نفسه تلك الإساءات وذلك الجحود الذي لقيه بمكة قبل الهجرة. كذلك نسي ذلك التآمر وتلك الأحقاد والعداوات التي قاموا بها ضده بعد الهجرة. لو كان الأمر بيد أي قائد من القواد أو صاحب رسالة من الرسالات في أي عهد من العهود لما تأخر في أن يبطش بمن بطش به حين تواتيه فرصة الانتقام، فالعين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، وهذه سنة القصاص. ولكن صاحب السيرة العطرة والأخلاق العظيمة التي وصفه الله بها، تناسى كل هذا، وأقبل على قومه بكل صدر رحب وقلب مفتوح، يقابلهم بالحب كله ويغفر لهم كل ما قاموا به.

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، بعد أن دخلها إلى المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه وقبله، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[2]، والأصنام تتساقط على وجوهها. وكان طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته، ولم يكن محرما يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا (عثمان بن طلحة)، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: "قاتلهم الله، والله لم يستقسما بها قط". فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصور فمحيت. ثم أغلق عليه الباب وعلى أسامة بن زيد وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع، وقف وصلى هناك، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه ووحد الله تعالى، ثم فتح الباب، وقريش قد وقفت بالمسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع بهم ابن مدينتهم بعد أن أعزه الله ونصره وأعاده فاتحا لمدينتهم وقاهرا لدولة شركهم. الكل خائف يترقب، وهم يعلمون فداحة الجرم الذي ارتكبوه في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم على مدى سنين طويلة.

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الباب وهم تحته، فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أومال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة (البيت) وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب" ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3]. ثم قال: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا: "خيرا أخ كريم وابن أخ كريم"، قال: "فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء". ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: "يا رسول الله، إجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك وسلم"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين عثمان بن طلحة؟" فدعي له فناوله المفتاح، وقال له:

---

[1] الإسراء: ٨١.
[2] سبأ: ٤٩.
[3] الحجرات:

"هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا بما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف".

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وكان ول أذان يرفع عليها وقع على سمع أهل مكة وأرد الله أن يرفع من عندها خمس مرات في اليوم حتى تقوم الساعة ويتردد صداه في الآفاق إلى يوم الدين، ثم دخل عليه الصلاة والسلام دار أم هانئ بنت أبي طالب، إبنة عمه، فاغتسل وصلى ثمانت ركعات في بيتها، فكان الوقت ضحى، وهي صلاة الفتح، وصار أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنا أو بلدا، صلوا عيب الفتح هذه الصلاة إقتداءا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرا لله لما فتحه عليه.

ولما استقر الفتح أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كلهم من هل مكة إلا تسعة أشخاص، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله ابن سعد بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، واثنتين من القيان (الجوارى المغنيات) لابن خطل، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسارة، مولاة لنفر من بني عبد المطلب.

فأما عبد الله بن أبي السرح، وهو أخ لعثمان بن عثمان من أمه، فجاء به عثمان وأسلم فاستأمن له عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل منه، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد، ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل، فاستأمنت له زوجته(1) بعد أن فر بعد فتح مكة، فأمنه النبي فقدم وأسلم وحسن إسلامه، وكان من قواد المسلمين في عهدي الصديق والفاروق عمر.

وأما ابن خطل، والحارث بن نفيل، ومقيس بن صبابة وإحدى القينتين فقتلوا، لأن مقيس كان قد أسلم ثم ارتد وقتل ولحق بالمشركين، وأما هبار ابن الأسود، فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، وماتت بسبب ذلك، ففر، ثم أسلم وحسن إسلامه. واستؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لسارة ولإحدى القينتين، فأمنهما فأسلمتا.

(1) هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت واستأمنت له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس خطيبا، فحمـد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: "أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلـق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لإمرئ يؤمن بالله واليوم الآخـر أن يسفك فيها دما، أو يعضد بها شجرا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتهـا اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب".

ولقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته أمورا هامة تتصل بأمر فتح مكة، منهـا قوله "إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس" فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومحمد عليـه الـصلاة والسلام. وقوله "فلا يحل لأحد أن يسفك بها دما"، فهذا التحريم لسفك الدم المختص بها، وهـو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرما. كما أن تحريم عضد (قطـع) الـشجر بهـا واختلاء خلائها هو أمر مختص بها، وهو مباح في غيرها.

ولما فتح الله مكة على رسوله، وهي بلده ووطنه ومسقط رأسه، قال الأنـصار فيمـا بيـنهم: "أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها"، وهو يـدعو على (الصفا) رافعا يديه، فلما فرغ من دعائه قال لهم: "ماذا قلتم؟" قالوا: "لا شيء يا رسـول الله"، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "معـاذ الله، المحيـا محياكم، والممات مماتكم".

وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم سراياه لتحطيم الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها منها اللات والعزى، ومنات، ونادى مناديه في مكة: "من كان يؤمن بالله واليـوم الأخر فلا يدع في بيته صنما إلا فبعث خالد بن الوليد لتحطيم صنم العزى، وكانـت بنخلـة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكان أعظم أصنامهم، وكان سـدنتها بنـو شـيبان، فقـام بتحطيمها. وبعث سعد بن زيد الأهلي إلى (مناة)، وكانت عند (قديد)، وهي للأوس والخـزرج وغسان وغيرهم فهدمها.

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة بعثه إلى بني جذيمة داعيا إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلا، فخرج في ثلاثمائة وخمسين مـن المهـاجرين والأنصار وبني سليم فانتهى إليهم، فقال "ما أنتم؟" قالوا: "مسلمون قد صلينا وصـدقنا بمحمـد

وبنينا المساجد في ساحتنا وأذنا فيها، قال: "فما بال السلاح عليكم؟" قالوا: "إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم". وقد قيل: "إنهم قالوا صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا"، قال لهم: "فضعوا السلاح" فوضعوه، فقال لهم: "استأسروا" فاستأسر القوم. فأمر بعضهم فكتف بعضا، وفرقهم في أصحابه، فلما كان في السحر، نادى خالد بن الوليد: "من كان معه أسير فليضرب عنقه".

فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"، وبعث عليا يؤدي لهم فدية قتلاهم وما ذهب منهم.

ترتيب أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية:

لما أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالقتال: أمره أولا أن يقاتل من يقاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه، بعد الأمر بالجهاد، ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره الله فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالحرب والسلام، والمنافقين بالحجة والبيان.

قال تعالى: **{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}**(١). وقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}**(٢).

وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في سورة التوبة بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسما أمر بقتالهم، وهم الكفار الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر وانتصر عليهم، وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره بأنه يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسما لم يكن لهم عهد ولم

(١) التوبة: ٢٩
(٢) التوبة: ٧٣

يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انقضت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله تعالى: **{فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ..}**[1]، وهي الأشهر الحرم المذكورة في قوله تعالى: **{فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...}**[2]، وهي أشهر التيسير وأولها يوم الأذان، وهو يوم العاشر من ذي الحجة وآخرها العاشر من ربيع الآخر، وهي ليست الأربعة الأشهر الحرام المذكورة في سورة التوبة في الآية رقم ٣٦ والتي يقول الله تعالى فيها: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ}**.

وقد أجل الله تعالى أصحاب هذه العهود أربعة أشهر من عاشر ذي الحجة حتى عاشر ربيع الآخر من نفس العام، ثم أمره بعد إنقضائها أن يقاتلهم، فقتل منهم الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب الجزية على أهل الذمة من أهل الكتاب. فاستقر أمر الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم لما آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام وأسلموا، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. فصار أهل الأرض مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، ومحارب وبصدد عقد الذمة وأخذ الجزية فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ من أحد من الكفار جزية إلا بعد نزول (براءة) في السنة الثامنة من الهجرة، فلما نزلت آية الجزية، أخذها من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كذلك أخذها من مجوس البحرين، ذلك لأنهم كان لهم كتاب وأضاعوه. وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم (معاذا بن جبل) رضي الله عنه إلى اليمن، فعقد لمن لم يسلم من يهودها الذمة وضرب عليهم الجزية. ولم يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من يهود خيبر، وظن بعض المخطئين أن ذلك استثناء ليهود خيبر، ونسوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قاتلهم وصالحهم على أن يقرهم في أرضهم على أن يدفعوا الخراج عنها. ولم يكن حكم الجزية قد نزل بعد، فسبق عقد صلحهم وإقرارهم في أرضهم نزول الجزية، ثم نزل أمره تعالى في (براءة) لرسوله أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فلم يدخل في هذا يهود خيبر إ

[1] التوبة : ٢
[2] التوبة : ٥ .

ذاك، لأن العقد كان قديما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم على إقرارهم على الخراج، ولم يطالبهم بشيء غير ذلك، وطالب سواهم من أهل الكتاب ممن لم يكن بينهم وبينه عقد، كنصارى نجران، ويهود اليمن وغيرهم. فلما أجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهود خيبر إلى الشام، تغير ذلك العقد الذي تضمن إقرارهم في أرض خيبر، وصار عليهم حكم غيرهم من أهل الكتاب.

وعند مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك، صالح (أكيدر) صاحب دومة الجندل على الجزية وحقن له دمه. كذلك صالح أهل نجران على الجزية، كما أمر معاذا بن جبل عند توجهه إلى اليمن أن يأخذ من كل محتلم دينارا أو قيمته من ثياب اليمن (المعافرية)، ولم يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والعجم، بل أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم من نصارى العرب، وأخذها من مجوس هجر، وكانوا عربا. كذلك أخذها من مجوس البحرين جميعا وكانوا عربا، وكانوا على المجوسية لتبعيتهم لفارس أنذاك. وكان عرب بني تغلب نصارى لمجاورتهم للروم وتبعيتهم لهم، وكانت قبائل عربية في اليمن على اليهودية لمجاورتهم يهود اليمن. فأجرى عليه الصلاة والسلام الجزية على أهل الذمة جميعا، ولم يعتبر أباءهم، ولا حتى دخلوا في دين أهل الكتاب.

وحكم الجزية أن تؤخذ عن الرجال البالغين دون النساء والصبية، والدليل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: "خذ من كل حالم دينارا".

ومن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يظهر كبرا أو تعالى أو غرورا عند الفتح في الحرب، فقد فتح مكة وهو في وضع السجود في الصلاة فوق ناقته منحنيا على ظهرها حتى أن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته واستكانا لعزته أن أحل له حرمه وبده ولم يحل ذلك لأحد قبله ولا بعده. وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد دخل مكة في موكب رائع مهيب، وهو راكب ناقته (القصواء) يحف به جيشه من كل مكان وتحيط به جموع أتباعه راكبين الهجن والخيول. وياله من مشهد عظيم لم تر مكة في حياتها مثله من قبل، ولم ير سكان مكة، الذين اعتلوا أسطح منازلهم وشعاب جبالهم فتحا قبله لمدينتهم. الشيء الوحيد الذي تعيه ذاكرتهم هو مشهد غزو جيش (أبرهة الأشرم) ومجيئه لهدم الكعبة والنهاية التعسة التي كانت لهذا الجيش على يد الطير الأبابيل الذي أرسله الله عله ليبيده ويبيد الفيل بحجارة من سجيل وشتان بين الجيشين... جيش جاء

ليهدم بيت الله وجيش جاء بقيادة رسول الله المنتصر على المشركين بـــالله ليعلـــى كلمـــة الله وليعظم أكرم بيت له.

لو تعرضنا لتاريخ كل الفاتحين الذين فتحوا العواصم عبر التاريخ القديم والحديث لوجـــدناهم يدخلون تلك العواصم زاهين متكبرين متغطرسين يتباهون بنصرهم ويتفاخرون وهم يحملون أكاليل الغار، ويدوسون تحت أقدامهم من هزموهم واقتحموا ديارهم، ويبيدون في هذه العواصم كل من وقف في طريقهم ويحرقون كل أخضر ويابس بها. لكن محمدا فتح مكة حامدا وشاكرا لأنعم الله عليه، وقد كان صلوات الله عليهم على الدوام عبدا شكورا، ولما أنزل الله تعالى عليه قوله بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، سألته السيدة عائشة عن سر إطالة سجوده، فتقول له: "ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟" فيرد عليها بقوله: "أفلا أكون عبدا شكورا".

ومن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم في توجيـــه قواد جيشه وسراياه ووصيته لهم بتقوى الله ومن معهم من المسلمين، ثم قوله لهم: "اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوكم فـــاقبلوا مـــنهم وكفوا عنهم. ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبروهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، فإن هم أبوا فسلوهم الجزية. فـــإن هـــم أجـــابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، فإن هم أبوا فاستعينوا بالله وقاتلوهم".

"وإذا حاصرتم أهل حصن فأرادوكم أن تجعلوا لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعلوا لهم ذمـــة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعلوا لهم ذمتكم وذمة أصحابكم، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمـــم أصـــحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله".

"وإذا حاصرتم أهل حصن فأرادوكم أن تنزلوهم على حكم الله فلا تنزلوهم على حكم الله ولكن انزلوهم على حكمكم، فأنتم لا تدرون أيصيب حكم الله فيهم أم لا".

هذه كانت أخلاقيات الحرب وأسلوبه عليه الصلاة والسلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصـــايا فيالحرب.

وكان عليه الصلاة والسلام ينهي في مغازيه عن النهبة والمثلة، وقال: "من انتهب نهبة فلـــيس منا" وقد أمر عليه الصلاة والسلام بكفأ القدور التي طبخت من النهبة.

وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، فأاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنما، فانتهبوها، وإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي ومعه قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يلقي على اللحم التراب، ثم قال: "إن النهبة ليست بأحل من الميتة".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدد في الغلول[1] وهو السرقة من غنيمة الحرب قبل تقسيمها، ويقول عنه: "هو عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة". ولما أصيب غلامه (مدعم) وقتل في الحرب يوم خيبر، قالوا: "هنيئاً له الجنة"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفسي بيدي إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم ولم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا في جهنم".

وقال أبو هريرة: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الغلول في الحرب، وعظم أمره، فقال: "لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا، قد أبلغتك، على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك".

وقالوا في بعض غزواتهم: "فلان شهيد وفلان شهيد" حتى مروا على رجل فقالوا: "وفلان شهيد"، فقال عليه الصلاة والسلام: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة"، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذهب يا ابن الخطاب، إذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون". وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق متاع الغال وضربه، وحرقه الخليفتان أبو بكر وعمر بعده.

وكان من أخلاقيات الحرب في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه إذا صالح قوما فنقض بعضهم عهده وصلحه، وأقرهم الباقون ورضوا به، غزا الجميع، وجعلهم كلهم ناقضين، كما فعل ببني قريظة وبني النضير. من قينقاع، وكما فعل مع أهل مكة، فهذه سنته صلى الله عليه وسلم في أهل العهد.

وكانت من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صالح قوما وعاهدوهم، فانضاف إليهم عدو له سواهم، فدخلوا معهم في عقدهم، وانضاف إليهم قوم

([1]) الغلول هي الخيانة في المغنم وغيره ، ويقال غل فلان غلولا ، وفي القرآن الكريم : { وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }

آخرون فدخلوا معه في عقده، صار حكم من حارب من دخل معه في عقده من الكفار حكم من حاربه، وبهذا السبب غزا أهل مكة، فإنه لما صالحهم على وضع الحرب بينهم وبينـــه عــشر سنين، تواثبت بنو بكر بن وائل، فدخلت في عهد قريش وعقدها، وتواثبت خزاعة فدخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده، ثم اعتدت بنو بكر على خزاعـــة وقتلـــت مـــنهم وأعانتهم قريش في الباطن بالسلاح فعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ناقضين للعهـــد بذلك، واستجار بني بكر بن وائل لتعيدهم على حلفائه.

وكانت من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية جواز قتل الجاسوس حتى ولو كان مسلما، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل (حاطب بـــن أبـــي بلتعه) لما بعث إلى يهود خيبر يخبر غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل قتله إنه مسلم"، بل قال: "وما يدريك لعل الله قد إطلع علـــى أهل بدر، اعملوا ما شئتم"، فأجاب بأن فيه مانعا من قتله، وهو شهوده بدرا، وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل الجاسوس في الحرب الذي ليس له هذا المانع. وأبح قتـــل الجاســـوس المسلم راجعا إلى رأي الإمام فإن رأي في قتله مصلحة للمسلمين قتلـــه، وإن كـــان اســـتقباؤه أصلح، استبقاه.

كذلك أوجبت أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية بعدم قتل رسول الكفار في وقـــت الحـــرب، وأية ذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي سفيان ابن حرب حين جاء من مكة رسول قومه إليه يوم فتح مكة، وكان أبو سفيان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد.

كذلك أجازت أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية غزو الرجل وأهله معه، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان معه في غزوة هوزان والطائف زوجته أم سلمة وزوجته زينب بنت جحش – كذلك جواز نصب المنجنيق على الكفار ورميهم به، وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل مـــن النساء والذرية. وأيضا جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم، وذلـــك نكايـــة لهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغل فضل العقيدة والإيمـــان فـــي رجالــــه لإنجـــاز المعارك، وقد ظهر ذلك في اختيار قواد سراياه وغزواته، وإذا ما استعرضنا أسماء قواده في تلك الغزوات والسرايا نرى أنهم كانوا من أقرب الصحابة إليه وأقواهم عقيدة وأدهـــم إيمانـــا وأشجعهم في لقاء العدو.

وكانت من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية كتمان الرسول صلى الله عليه وسلم خبر غزوته أو سريته عمن يحيطون به، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون. وإن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان، لا سيما في الحرب، لسنة حكيمة حميدة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

ومن أمثله السرايا التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدها كتمان أمرها حتى عن قائدها "سرية عبد الله بن جحش"، التي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير مسيرة يومين، وكان أمره في هذا الكتاب أن يسير يومين حتى يأتي بطن (نخلة)، وهنالك يقف ليرصد عير قريش ويعلم من أخبارهم. ومما لوحظ في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه، ثم وصيته له بألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته، فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه فيفر من القتال، وهنا تتجلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام في اشتراط الرغبة في الطواعية واجتناب القسر والإكراه.

ونستخلص من سرية عبد الله بن جحش بعض أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، ذلك برغم أن هذه السرية كانت سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه، إلا أنه حدث بعد أن فض ابن جحش الكتاب خرج اثنان من رجال السرية يطلبنا بعيرا لهما ضل، وهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، فأسرتهما قريش. ثم نزل ركب السرية بقيادة ابن جحش بنخلة فمرت بهم قافلة تجارية تخص عمرو بن الحضرمي، وكان التوقيت آنذاك آخر شهر رجب، وهو من الأشهر الأربعة الحرم، التي يحرم فيها الحرب والقتال في الجاهلية والإسلام. وكان بعض الرجال المشاركين في السرية ممن احتجزت قريش أموالهم وممتلكاتهم في مكة. فتشاور المسلمون في أمر قتال رجال القافلة، وكانوا أمام أمرين، إما يقاتلوا رجال القافلة القرشيين ويستردوا بعض أموالهم مما تحمله القافلة برغم الشهر الحرام، وإما يفوتوا تلك الفرصة على أنفسهم، لحرمة القتال في الشهر الحرام، ويتركوا القرشيين يهربون بما يحملون. وانتهى الأمر بالمسلمين أن اندفعوا للقتال ما أصابوه من تجارة قريش، ورمي أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا رجلين من رجال القافلة.

ولما عادت السرية إلى المدينة وساقوا معهم الأسيرين، وحجزوا للنبي صلى الله عليه وسلم الخمس من غنيمتهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبله منهم وقال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"، وقام إخوانهم بتعنيفهم لمخالفتهم أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، وأساء أهل المدينة استقبالهم.

وانتهزت قريش فرصة التشهير برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وإتهامهم بإباحة الدماء والقتال في الشهر الحرام ز ولكن الله تعالى دافع عن أصحاب السرية وأباح للمسلمين القتال في الشهر الحرام ما دام الكفار أخرجوهم من ديارهم ومن المسجد الحرام، وقد نزلت في ذلك آياته تقول: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}**[1].

فقبض الرسول صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وطلبت قريش فداءهما فقال لهم عليه الصلاة والسلام: "لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم".

ومن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية في هذه الحادثة نستخلص أنه لا يحق للمشركين الاحتماء بحرمة الأشهر الحرم إذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا. "هذا هو الحكم الذي أعلنه الإسلام، وقد أعلنه على الوجه الذي دانت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم. فهناك حرمات دولية إذا خالفتها إحدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها، أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة، وإلا كانت الحرمات درعا للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا في وجوههم كما أريد بها أن تكون.

فالذي حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو حكم القانون الدولي المتفق عليه: أسيران بأسيرين، وأموال القافلة القرشية بالأموال التي للمسلمين وحجزتها قريش. فليس هناك داع لاعتراض أي من المستشرقين على حكم النبي والإسلام في هذا الأمر. فإن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في مثل هذه

---

(1) البقرة: ٢١٧

الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي أرتضاه النبي ونزل به قول العزيز الحكيم، وهو حكم مساواة يدين بن المسلمون كما يدانون.

ومن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمح للنساء بالخروج للحرب والغزو لمداواة الجرحي وسقى الماء والقيام بالخدمات العامة للجيش، وللدفاع عن أنفسهن إن أراد العدو الاعتداء عليهن على أن يلتزمن بالواجب الشرعي في كل حالة فتخرج المرأة مسافرة مع زوجها أو ذي محرم منها، ولا تمس أجنبيا لعلاجه إلا بضرورة ولا تفحش في الاختلاط بالرجال، بل لا تخلط إلا للضرورة مادام الرجال أجانب وليسوا محارم لها.

وعن الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة[1].

وعن أم عطية الأنصارية قالت: "غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على الزمنى[2].

وعن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى[3].

وعن أنس أن أمه أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرا فكان معها فرآها زوجها أبو طلحة، فقال: "يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر"، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما هذا الخنجر يا أم سليم؟" قالت: "إتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه" فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك[4].

هذه هي أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، وهي، كما أشرنا، كانت حروب دفاع نجح الإسلام فيها وفضل فيها مهاجموه ومن أراج من أعدائه أن يطفئ نور الله **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[5]. ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم، قائد حروب المسلمين، على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتادون عليه، وإنه عليه الصلاة والسلام لم يتجنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده، ولكنه إجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضه

---

(1) رواه: أحمد والبخاري.
(2) رواه: أحمد ومسلم وابن ماجه.
(3) رواه: مسلم والترمذي.
(4) رواه: مسلم.
(5) التوبة: 32.

يلجأ إليها ليس له الخيار في تجنبها إذا ما أرادها العدو. ولم يحارب الإسلام بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع، لكنه حارب بالسيف سلطات وقفت في طريقه وحالت بينها وبين شعوبها على التعرف على الحقيقة دعوته، فكان لابد للقوة من قوة تماثلها لأن السلطة تزال بالسلطة ولا غنى عن القوة في إخضاعها. وقد أمر الله تعالى المسلمين بإعداد القوة لإرهاب عدو المسلمين، وقال سبحانه في ذلك: **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..}**(١).

ومن أخلاقيات الحرب في الإسلام أن الإسلام لم يتحكم إلى السيف قط، إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها، وهي حالة الإنشقاق على الدولة وإيقاع الفتنة بين مواطنيها، وحالة حمل أناس منها السلاح على آخرين من أبنائها، وحالة فرض الجهاد لحماية سلامة الدولة والدعوة إلى الدين.

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك.

ولقد كان صاحب السيرة النبوية صلى الله عليه وسلم قد التزم تاما بأخلاقيات الحرب وسن من هذه الأخلاقيات ما يجب أن يسير عليه كل قائد محارب وكل صاحب حق مناضل في سبيل دعوته. وقد ضرب محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في قيادة حروبه وكان عبقريا فيها، "عبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء". وما أعظمك يا رسول الله داعيا ومجاهدا ومحاربا وقائدا وهاديا ومبشرا ونذيرا، صلى الله عليه وعلى آلك وصحبك وسلم.

---

(١) الأنفال: ٦٠

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم:
- كتب الصحاح:
  - صحيح البخاري
  - صحيح مسلم
- كتب السنن:
  - سنن ابن ماجه
  - سنن أبو داود
  - سنن الترمذي
  - سنن النسائي
- كتب الأسانيد:
  - مسند الإمام أبو حنيفة
  - منسند الإمام أحمد بن حنبل
  - مسند الإمام الشافعي
  - موطأ الإمام مالك بن أنس
- ابن الأثير:
  - أسد الغابة في معرفة الصحابة
- ابن إسحق:
  - المغازي
- ابن تيمية:
  - السياسة الشرعية
- ابن سعد:
  - الطبقات الكبرى
- ابن سيد الناس:
  - عيون الأثر
- ابن شبه:

- أخبار المدينة

- ابن عبد البر:

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب

- ابن قيم الجوزية:

- زاد المعاد في أخبار خير العباد

- ابن كثير:

- السيرة النبوية

- ابن هشام:

- السيرة النبوية

- أبو الأعلى المودودي:

- نظريات الإسلام، ترجمة جليل الأصلحي

- الأزرقي:

- أخبار مكة

- رفاعة الطهطاوي:

- نهاية الإعجاز بأخبار ساكن الحجاز

- السمهودي:

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى

- السهيلي:

- الروض الأنف

- الطبري:

- جامع البيان في تفسير القرآن

- عباس العقاد:

- عبقرية محمد

- عبد الوهاب النجار:

- قصص الأنبياء

- عطية القوصي:

- محمد، النبي المصطفى
- محمد جاد المولى:
- محمد المثل الكامل
- محمد حسين هيكل:
- حياة محمد
- محمد رشيد رضا:
- الوحي المحمدي
- محمد بن عبد الوهاب:
- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم
- محمد فؤاد عبد الباقي:
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
- محمود شاكر:
- التاريخ الإسلامي، السيرة

المراجع الأجنبية:

-Andrae, T:

."Mohammed, the man and his faith" london ١٩٣٦

-Badawi, Abd Al Rahman:

"Defense de la vie du prophete muhamd contre sec detracteurs", paris .١٩٩٠

-Blanchere, r.:

."La probleme de mohomet", paris ١٩٥٢

-Buhl, F:

"Mohammed, in the encyclopeadia of Islam", v.

-Charles, J:

."Mahomet, israel et le christ", paris ١٩٥٦

-Dememgham, E:

."La vie de mahomet", paris ١٩٥٠

-Rodinson, M:

"MOHAMMED", TD. BY: ANNE CARTER, NEW YORK ١٩٧٤.

-Watt, m.:

."Muhammad, at medina", oxford ١٩٥٦

-Watt, m.:

"Muhammad, prophet and stateman", oxford ١٩٥٦.